الدكتور عبد الوهاب المسيري

الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان



الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان

الطبعة الأولى: 2002

الطبعة الثانيه: 2007

إصدار دار الفكر دمشق-سوريا

المؤلف:

الدكتور عبد الوهاب المسيرى

معلومات عنه:

متخصص بالدراسات الصهيونيه

من مواليد دمنهور بمصر العربيه "1938"

الأعمال السابقة والحاليه

-رئيس وحدة الفكر الصهيونى وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسيه والإستراتيجيه بالأهرام.

-مستشار ثقافى للوفد الدائم بجامعة الدول العربيه فى هيئة الأمم المتحده.

-أستاذ الأدب الأنكليزى والمقارن بجامعات عين شمس والملك سعود والكويت.

-مستشار أكاديمى للمعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن.

-عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلاميه والإجتماعيه ,ليسبرج فيرجينيا.

له مؤلفات متميزه كثيره بالعربيه والأنجليزيه تتناول بحوثاً عن اليهوديه والصهيونيه وتاريخهما وفكرهما وأزماتهما وإشكاليات العنف والتحيز القائمة فيهما

*مقدمة

*الفصل الأول :الإنسان والمادة
-الطبيعة البشرية
-الفلسفة المادية
-المادية القديمة المادية الجديدة
-العقلانية المادية واللاعقلانية المادية
-المرجعية النهائية :المتجاوزة والكامنة
-الواحدية المادية

*الفصل الثانى :إشكالية الطبيعى والإنسانى
-الفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية
-إشكالية الإنسانى والطبيعى فى العالم العربى
-الشرح والتفسير
-فشل النموذج المادى فى تفسير ظاهرة الإنسان
-المساواة والتسوية
الهجوم على الكبيعة البشرية

*الفصل الثالث:العقل والمادة
-العقل المادى
-العقل الأداتى والعقل النقدى

*الفصل الرابع المادية فى التاريخ

-الداروينية الإجتماعية

-الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة

-المطلق العلمانى الشامل

-اللحظة العلمانية الشاملة النماذجية

*الفصل الخامس :الترشيد والقفص الحديدى

-الترشيد فى الأطار المادى

-الترشيد وعلمنة البنية المادية والإجتماعية

-الترشيد وعلمنة الإنسان

-الترشيد والقفص الحديدى

*الفصل السادس :نهاية التاريخ

-نهاية التاريخ الإنسانى

-التاريخ يصل إلى نهايته عند تحقيق :فوكوياما وهنتينجتون

-التاريخ لاهدف له ولاغاية: ما بعد الحداثة

*الفصل السابع : العنصرية الغربية فى عصر ما بعد الحداثة

-العنصرية الغربية فى عصر التحديث (عنصرية التفاوت)

-العنصرية الغربية فى عصر ما بعد الحداثة (عنصرية التسوية)

*الفصل الثامن: المادية والأبادة

-الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنةً في الحضارة الغربية الحديثة

-تحول الإمكانية الإبادية إلى حقيقةً تاريخية

-إشكالية إنفصال القيمة والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا

مُـقَـــدَّمةً

تشـــكَّل الفلســـفة الماديـــه البنْيـــة الفكريـــة التحتيـــة او النمـــوذج المعرفـــى الكـــامن للعديـــد مـــن الفلســـفات الحديثة:الماركســـية والبرجماتيـــه والداروينيـــة،كما انهـــا تشـــكَّل الاطـــار المرجعـــى الكـــامن لرؤيتنـــا للتـــاريخ والتقـــدُّم وللعلاقـــات الدوليـــة،بل وأحيانـــاً لأنفســـنا .وقـــد ارتبطـــت الفلســـفة الماديـــة فـــى عقـــول الكثيـــرين بالعقلانيـــة والتقـــدُّم والتســـامح...إلخ.وأعتقد انـــه حـــان الوقـــت لفـــتح بـــاب الإجتهـــاد بخصـــوص هـــذه الفلســـفة ، نظـــراً لأهميتهـــا وهيمنتهـــا علـــى بعـــض أعضـــاء النخـــب الثقافيـــة والفكريـــة.

ويمكـــن تصـــنيف هـــذا الكتـــاب بإعتبـــاره محاولـــةً فـــى هـــذا الإتجـــاه.

وقـــد خُصَّـــص الفصـــل الأول ((الإنســـان والمـــادة)) لتعريـــف الفلســـفة الماديـــة وســـر جاذبيتهـــا ومـــواطن قصـــورها ، كمـــا يعـــرض الفصـــل نفســـه ،فـــى بدايتـــــــه ، للظـــــــاهرة الإنســـــــانية وســـــــماتها الأساســـــــية.

ويقـــوم الفصـــل الثـــانى ((إشـــكالية الطبيعـــى والإنســـانى)) بتوضـــيح الفـــروق الأساســـية بـــين الظـــاهرة الطبيعيـــة والظـــاهرة الإنســـانية ، وفشـــل الفلســـفة الماديـــة فـــى تفســـير ظـــاهرة الإنســـان ، بـــل ويـــذهب هـــذا الفصـــل إلـــى أن هـــذه الفلســـــفة تشـــــكل هجومـــــاً علـــــى الطبيعـــــة البشـــــرية.

ويتنـــاول الفصـــل الثالـــث ((العقـــل والمـــادة)) مفهـــوم العقـــل ،فيبَّـــين ان العقـــل فـــى حـــد ذاتـــه مفهـــوم عـــائم غـــائم وأن المهـــم هـــو النمـــوذج الكـــامن وراء العقـــل .وإنطلاقـــاً مـــن هـــذا التصـــوُّر تحـــاول الدراســـة حصـــر اهـــم ســـمات

العقــل المــادى ، كمــا تحــاول توضــيح الفــروق بــين العقــل الأداتــى والعقــل النقــــــــــــدى.

ويتنــــاول الفصـــــل الرابـــع ((الماديـــــة والتـــاريخ)) بعـــض التجليــــات التاريخيــــة للفلســــفة الماديــــة ، فيبَّــــين ان العلمانيــــة الشــــاملة والإمبرياليــــة والداروينيــــة هــــى كلهــــــــا تجليــــــــات متنوعــــــــة للفلســــــــفة الماديــــــــة.

أمــــا الفصــــل الخــــامس ((الترشــــيد والقفــــص الحديــــدى)) فيتنــــاول الترشــــيد او العلمنــــة بمعنــــى إعــــادة صــــياغة المجتمــــع والإنســــان فــــى الإطــــار المــــادى ، وكيــــف أن هــــذا يــــؤدى فــــى نهايــــة الامــــر إلــــى تنمــــيط الحيــــاة ووهــــم الــــتحكُّم الكامــــــــــــل فيهــــــــــــا.

والفصــــل الســــادس هــــو أمتــــداد لهــــذا الفصــــل، فنهايــــة التــــاريخ هــــى ، فــــى واقــــع الامــــر النقطــــة التــــى يتخيــــل الــــبعض أنهــــا النقطــــة التــــى يــــتم الــــتحكُّم فيهــــا فــــى معظــــم جوانــــب الحيــــاة ، بحيــــث يصــــبح المجتمــــع كالآلــــة الرشــــيدة.وقد ميَّــــزت الدراســــة فــــى الفصــــل الثــــانى بــــين المســــاواة والتســــوية علــــى المســــتوى النظــرى.

والفصـــل الســـابع ((العنصـــرية الغربيـــة فـــى عصـــر مـــا بعـــد الحداثـــة)) هـــو محاولـــةً لتطبيـــق هـــذا المفهـــوم علـــى ظـــاهرة العنصـــرية الغربيـــة.

والفصـــل الثـــامن والأخيـــر ((الماديـــة والإبـــادة)) يبيـــَّن كيـــف ان الرؤيـــة الماديـــة هـــى رؤيـــةً إباديـــة فـــى جوهرهـــا، ويطبـــق الفصـــل هـــذا التصـــوُّر علـــى ظـــاهرة الإبـــادة النازيـــة لليهـــود وغيـــرهم مـــن الأقليـــات.

وهــذه الدراســة، شــأنها شــأن معظــم دراســاتى فــى الآونــة الأخيــرة ،تســتخدم النمــوذج المعرفــى أداةً تحليليــة ، فتقــدَّم دراســةً فــى النمــوذج المعرفــى المــادى فــى حــد ذاتــه ،ثــم تجلياتــه النظريــة والتاريخيــة المختلفــة.وبالتالى فالدراســة لا تأخــذ خطــاً مســتقيماً تراكميــاً وإنمــا تأخــذ شــكل بؤرة(النمــوذج التحليلــى) تتفــرع منهــا وتعــود إليهــا كــل الموضــوعات .وهــذه الطريقــة تبــيِّن الوحــدة الكامنــة (الماديــة وتفكيــك الإنســان) خلــف التنــوع (الدراســات المختلفــة)،ولكنهــا قــد تــؤدى إلــى بعــض التكــرار . وقــد بــذلت جهــداً كبيــراً لتحاشــــــــــى ذلــــــــــك أو التقليــــــــــل منــــــــــه.

ومعظــم مــادة هــذا الكتــاب تُنشــر لأول مــرة،ولكن بعضــها نُشــر قبــل ذلــك ،إمــا علــى هيئــة مقــالات أو فــى كتــب .ولكنــى وجــدت أن جمعهــا كلهــا فــى كتــاب واحــد يــدور حــول موضــوع واحــد ، مــع توضــيح النمــوذج المعرفــى الكــامن وراء كــل الدراســات ، سيســاعد كثيــراً علــى توضــيح الأطروحــة الأساســية فــى الكتــاب ،ويبــرِّر إعــادة نشــر هــذه المــادة.

ويبقــى هــذا العمــل إجتهــاداً اوليــاً نرجــو أن نكــون قــد أصــبنا فــى بعــض نقاطــه إن لــم نصــب فــى جميعهــا ، وأن يكتــب الله لنــا أجــرى الصــواب ،وإلا ، فلعلنــــــــــا لانحــــــــــرم الأجــــــــــر الواحــــــــــد.

والله من وراء القصد

عبد الوهاب المسيرى

دمنهـــــــــــــــــــــــــــــــور – القـــــــــــــــــــــــــــــــاهرة

كانون الثانى (يناير) 2002م

الفصـل الأول

الإنسان والمادة

هـل الإنسـان كـائن مـادي وحسـب؟ هـل هـو جـزء لا يتجـزأ مـن هـذا العـالم المـادي الطبيعـي خاضـع لقوانينـه لا يملـك منهـا فكاكـاً، لا يختلـف فـي سـماته الأساسـية عـن الكائنـات الأخـرى؟ هـذه أسـئلة جوهريـة تحـدِّد رؤيتنـا للكـون، ولـذا لابـد مـن الإجابـة عنهـا إن أردنـا توضـيح موقفنـا وتحيُّزاتنـا الفكريـة.

الطبيعـة البشـرية

تتسـم الطبيعـة البشـرية فـي تصـورنا بثنائيـة أساسـية لا يمكـن تصـفيتها (هـي صـدى للثنائيـة الحاكمـة الكبـرى، ثنائيـة الخـالق والمخلـوق، والمتجـاوز والحـالّ الكـامن) وهـي ثنائيـة الجانـب الطبيعـي/ المـادي فـي مقابـل الجانـب غيـر المـادي، أي الروحـي أو الثقـافي أو المعنـوي. فثمـة احتياجـات طبيعيـة/ ماديـة، مثـل حاجـة البشـر إلـى الطعـام والهـواء والنـوم والتناسـل وتلبيـة كـل مـا يتعلـق بتـركيبهم العضـوي (بغـض النظـر عـن أمـاكن إقـامتهم أو نمـط الحضـارة الـذي ينتمـون إليـه). فالإنسـان هنـا هـو موجـود مـادي متجسـد يشـارك بقيـة الكائنـات فـي بعـض الصـفات، فمـن حيـث هـو جسـم، يخضـع الإنسـان للقـوانين الطبيعيـة وضـرورات الحيـاة العضـوية إذ تسـري

عليه، وعلى بقية الكائنات، مجموعة من الآليات والحتميات. ولذا يمكن رصد هذا الجانب من وجوده من خلال النماذج المستمدة من العلوم الطبيعية (ويعبِّر عن نفسه فيما نسميه النزعة الجنينية). والفلسفات المادية، منطلقة من مرجعيتها المادية ومن إيمانها بأسبقية الطبيعة/ المادة على الإنسان، تركز على هذا الجانب من الوجود الإنساني وترد كل جوانبه الأخرى إليه.

ولكن هناك جانباً آخر للطبيعة البشرية متجاوزاً للطبيعة/ المادة وغير خاضع لقوانينها ومقصوراً على عالم الإنسان ومرتبطاً بإنسانيته، وهو يعبِّر عن نفسه من خلال مظاهر عديدة من بينها نشاط الإنسان الحضاري (الاجتماع الإنساني – الحس الخلقي – الحس الجمالي – الحس الديني). ومن المظاهر الأخرى لهذا الجانب أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عما يسمَّى العلل الأولى، وهو لا يكتفي أبداً بما هو كائن وبما هو معطى ولا يرضى بسطح الأشياء، فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكامنة وراءها والتي ينسبها إليها، وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون. وكلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري، ولذا سمى الإنسان الحيوان الميتافيزيقي. والإنسان كائن واعٍ بذاته والكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة، وهو عاقل قادر على استخدام عقله، ولذا فهو قادر على إعادة صياغة ذاته وبيئته حسب رؤيته.

وهو كائن صاحب إرادة حرة على الرغم من الحدود الطبيعية والتاريخية التي تحده. والحرية قائمة في نسيج الوجود البشري ذاته، فإن الإنسان له تاريخ يروي تجاوزه لذاته (وتعثره وفشله في محاولاته). فالتاريخ تعبير عن إثبات الإنسان لحريته وفعله في الزمان والمكان.

وهو كائن قادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/ المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وخرقها، وهو الكائن الوحيد الذي طوَّر نسقاً من المعاني الداخلية والرموز التي يدرك من خلالها الواقع.

وهو، أخيراً، النوع الوحيد الذي يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها، فالأفراد ليسوا نسخاً متطابقة يمكن صبها في قوالب جاهزة وإخضاعها جميعاً للقوالب التفسيرية نفسها، فكل فرد وجود غير مكتمل، مشروع يتحقق في المستقبل، واستمرار للماضي، ولذا فزمن الإنسان هو زمن العقل والإبداع والتغيير والمأساة والملهاة والسقوط، وهو المجال الذي يرتكب فيه الإنسان الخطيئة والذنوب، وهو أيضاً المجال الذي يمكنه فيه التوبة والعودة، وهو المجال الذي يعبِّر فيه عن نبله وخساسته وبهيميته، فالزمان الإنساني ليس مثل الزمان الحيواني الخاضع لدورات الطبيعة الرتيبة، فهو زمان التكرار والدوائر التي لا تنتهي و((العود الأبدي)). ولكل هذا، فإن ممارسات الإنسان

ليست انعكاساً بسيطاً أو مركباً لقوانين الطبيعة/ المادة، فهو مختلف كيفيًّا وجوهريًّا عنها.

فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله في بُعد من أبعاده أو في وظيفة من وظائفه البيولوجية أو حتى في كل هذه الوظائف. ولا توجد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادي لهذا الجانب الروحي في وجود الإنسان وسلوكه، لهذا فهو يشكل ثغرة معرفية كبرى في النسق الطبيعي/ المادي، فهو ليس جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها، يوجد فيها، ويعيش عليها، ويتصل بها، وينفصل عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لايُرد في كليته إليها بأية حال، فهو دائماً قادر على تجاوزها، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات. وهو لهذا كله لا يمكن رصده من خلال النماذج المستمدة من العلوم الطبيعية.

وبرغم أن كل إنسان فرد فريد إلا أننا نطرح ما نسميه مفهوم الإنسانية المشتركة (في مقابل الإنسانية الواحدة)، فنحن نذهب إلى أنه لا يمكن إدراك الإنسان في كل تركيبيته إلا من خلال نموذج توليدي، فنرى أن عقله مبدع خلاق، ولذا فهو يتمتع بقدر من الاستقلال عن الطبيعة، ولا يخضع لحتمياتها في بعض جوانب وجوده. وفي هذا الإطار، نذهب إلى أن ادعاء أصحاب النماذج التراكمية الآلية المادية بأن هناك إنسانية واحدة، تُرصد كما تُرصد الظواهر الأخرى، وبأن الناس كيان واحد

وإنسانية واحدة خاضعة لبرنامج بيولوجي ووراثي واحد عام، هو أمر يتنافى مع العقل ومع التجربة الإنسانية ومع إحساسنا بتركيبيتنا وتنوعنا الإنساني.

أما النموذج التوليدي، فهو ينطلق من الإيمان بإنسانية مشتركة (طبيعة بشرية) تأخذ شكل إمكانية وطاقة إنسانية كامنة لا يمكن رصدها أو ردها إلى قوانين مادية. هذه الطاقة لا يمكنها أن تتحقق في فرد بعينه أو شعب بعينه أو في جنس بعينه وإنما يتحقق بعض منها تحت ظروف وملابسات معينة ومن خلال جهد إنساني معين، ولذا فإن ما يتحقق لن يكون أشكالاً حضارية عامة وإنما أشكالاً حضارية متنوعة بتنوع الظروف والجهد الإنساني، لأن تحقق جزء يعني عدم تحقق الأجزاء الأخرى التي تحققت من خلال شعوب أخرى، وتحت ظروف وملابسات مختلفة ومن خلال درجات من الجهد الإنساني الذي يزيد وينقص من شعب لآخر ومن جماعة لأخرى.

ومما يزيد التنوع، أن الإنسان –كما أسلفنا – قادر على إعادة صياغة ذاته وبيئته حسب وعيه الحر، وحسب ما يتوصل إليه من معرفة من خلال تجاربه. هذه الأشكال الحضارية تفصل الإنسان عن الطبيعة/ المادة، وتؤكد إنسانيتنا المشتركة، فهي تعبير عن الإمكانية الإنسانية، دون أن تلغى الخصوصيات الحضارية المختلفة. لكن الفرادة لا تعني أنه لا يوجد أنماط تجعل المعرفة ممكنة، والحرية لا تعني أن كل الأمور

متساوية نسبية. فالإنسانية المشتركة، تلك الإمكانية الكامنة فينا، هذا العنصر الرباني الذي فطره الله فينا (ودعمه بما أرسله لنا من رسل ورسائل) تشكل معياراً وبُعداً نهائيّاً وكليّاً.

فــى مقابــل الإنســان والإنســانية المشــتركة نضــع الطبيعــة /المــادة .ومفهــوم الطبيعــة مفهــوم أساســى فــى الفلســفات الماديــة التــى تــدور فــى أطــار المرجعيــة الكامنــة ، خصوصــاً فــى الغــرب ، وهــو تعبيــر مهــذب يحــل محــل المادة.ولعــل كثيــراً مــن اللغــط الفلســفى ينكشــف إن أســتخدمنا كلمــة مــادى بــدلاً مــن كلمــة طبيعــى، فبــدلاً مــن المــذهب الطبيعــى نقول:المــذهب المــادى وبــدلاً مــن القــانون الطبيعــى نقــول :القــانون المــادى وبــدلاً مــن الإنســان الطبيعــى يمكننــا أن نقــول : الإنســان المادى.فعبــارة الإنســان الطبيعــى عبــارة مبهمــة رومانســية تســتدعى للأذهــان طــرزان، والنبيــل الوحش،وأبطــال الأدب الرومانســى،مع أن الإنســان الطبيعــى فــى واقــع الامــر شــخص يعــرَّف فــى أطــار وظائفــه الطبيعيــة البيولوجيــة ويعــيش حســب قــوانين الحركــة الماديــة ويُــردّ إليهــا ولــذل فهــو فــى بــراءى الــذئاب،وفى تلقائيــــة الأفعى،وفــــى حياديــــة العاصــــفة،وفى تســــطح الأشــــياء وبســـاطتها.والطبيعة ليســـتهى الأحجـــار والأشـــجار والســـحب والقمر.وإنمـــا هـــى كيـــان يتســـم بـــبعض الصـــفات الأساســـية تشـــكل فـــى مجموعهـــا أســـاس الفلســـفة الماديـــة التـــآ يمكـــن تلخيصـــها فيمـــا يلـــى:

1- الإيمـــان بوحـــدة الطبيعة،فالطبيعـــة شـــاملة لاإنقطـــاع فيهـــا ولا فراغـــات،فهى الكـــل المتصـــل ومـــا عـــداها مجـــرد جـــزء نـــاقص،فهى لا تتحمـــل وجـــــــــود أى مســـــــــافات أو ثغـــــــــرات أو ثنائيـــــــــات.

2-الإيمان بقانونية الطبيعة (لكل علة سبب).والطبيعة شيء منتظم متسق مع نفسه، فكل سبب يؤدى إلى االنتيجة نفسها فى كل زمان وفى كل مكان.

3-الإيمان بأن الطبيعة بأسرها خاضعة لقوانين واحدة ثابتة منتظمة صارمة حتمية مطردة وآلية، وبأنها كذلك رياضية واضحة،ولذا فهى لا تقبل أى خصوصيات.

4-الإيمان بأن الطبيعة تتحرك بشكل تلقائى وبأن الحركة أمر مادى.

5-الإيمان بأن لا يوجد غائية فى العالم المادى (حتى ولو كانت غائية إنسانية تسحب خصوصيات النشاط البشرى على الطبيعة المادية). فالطبيعة قوة متعينة لاتكترث بالخصوصية ولا بالتفرد او بالظاهرة الإنسانية ولا بالإنسان الفرد أو إتجاهاته أو رغباته.ذلك لأن الإنسان لا مكانة خاصة له فى الكون فهو لايختلف فى تركيبه عن بقية الكائنات.والإنسان الفرد او الجزء يذوب فى الكل ذوبان الذرات فيها
.

6-الإيمان بأنه لايوجد غيبيات او تجاوز للنظام الطبيعى من أى نوع، فالطبيعة تحوى داخلها كل القوانين التى تتحكم فيها وكل ما تحتاج إليه

لتفسيرها ، فهى علة ذاتها، توجد فى ذاتها ،مكتفية بذاتها وتدرك بذاتها ، وهى واجبة الوجود.

والإيمان بالطبيعة/ المادة كسقف للوجود الإنسانى هو المادية.والفلسفة المادية هى المذهب الفلسفى الذى لايقبل سوى المادة بإعتبارها الشرط الوحيد للحياة (الطبيعية والبشرية)، ومن ثم فهى ترفض الإله كشرط من شروط الحياة،كما أنها ترفض الإنسان نفسه إن كان متجاوزاً للنظام الطبيعى/المادى،ولذا فالفلسفة المادية تَرُدّ كل شىء فى العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مبدأ مادى واحد وهو القوة الدافعة والسارية فى الأجسام الكامنة فيها والتى تتخلل فى أثنائها وتضبط وجودها.قوة لاتتجزاء ولا يتجاوزها شىء ولا يعلو عليها أحد، وهى النظام الضرورى والكلى للأشياء، نظام ليس فوق الطبيعة وحسب،ولكنه فوق الإنسان أيضاً.وإن دخل عنصر آخر مادى على هذا المبدأ الواحد ، فإن الفلسفة تصبح غير مادية.
وكلمة مادة قد تبدو لأمول وهلة وكأنها كلمة واضحة, ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك.فالشىء المادى هو الشىء الذى كل صفاته ماديه:حجمه،كثافته،كتلته،لونه،سرعته ،صلابته،كمية الشحنة الكهربائية التى يحملها، سرعة دورانه ،درجة حرارته ،مكان الجسم فى الزمان والمكان... إلخ.
فالصفات المادية هى التى يتعامل معها علم الطبيعة (الفيزياء)، فالمادة ليس لها اى سمة من سمات العقل:الغاية ، الوعى، القصد، الرغبة،

الأغـــراض والأهـــداف، الأتجـــاه، الـــذكار، الإرادة، المحاولـــة،الإدراك... إلـــخ.

والماديــة تــرى أسـبقية المــادة علــى الإنســان وكــل نشــاطاته ، وتمــنح العقــل مكانــة تاليــة علــى المــادة ، ولــذا فــإن العقــل لــيس لــه فعاليــة ســببية ، ووجــوده لــيس ضــروريًّا لإســتمرار حركــة المــادة فــى العــالم. فنظريــة المعرفــة الماديــة (فــى مراحلهــا الأولــى) تقــر بإمكانيــة المعرفــة، فالعــالم قابــل لأن يُعــرَّف، لانــه معطــى لإحساســنا ووعينــا ، بــل إن ماديــة العــالم هــى شــرط لمعرفتــه . ولمعرفــة هــذا العــالم لا يحتــاج الإنســان إلــى إســتعارة وســائل مــن خــارج عــالم الطبيعــة/ المــادة. فهنــاك أولاً حواســه الخمــس التــى ترصــد المحسوســات، وهنــاك عقلــه الــذى يرتــب ويركــب المحسوســات ، ولكنــه لــيس منفصــلاً عــن الوجــود المــادى الحســى، فالمعرفــة هــى أنعكــاس الواقــع الخــارجى فــى دماغنــا عبــر أحساســاتنا، وتــراكم المعطيــات الحســية علــى صــفحة العقــل البيضــاء.ويمكن للإنســان أن يكتســب المزيــد مــن المعرفــة مــن خــلال التجريــب ومراكمــة المعلومــات فــى ذاكرتــه . وفــى بعــض أشــكال الماديــة لا توجــد حــدود للمعرفــة، فكــل مــا هــو موجــود قابــل لأن يُعــرف. أمــا التســاؤلات الميتافيزيقيــة فهــى ليســت موجــودة او ليســت موضــوعاً للمعرفــة.

والمــادة لا تســبق العقــل وحســب وإنمــا تســبق الأخــلاق كــذلك ، فــإن الأخــلاق تُفسَّــر تفســيراً ماديًّــا ووفقــاً لقــانون طبيعــى. فمنطــق الحاجــة

الطبيعـيــة المباشــرة هــو الــذى يــتحكم فــى الأخــلاق الإنســانية تمامــاً مثلمــا تــــــتحكم الجاذبيــــــــة فــــــــى ســــــــقوط التفاحــــــــــة.

ولــذا تنــادى المــذاهب الأخلاقيــة الماديــة بــأن الشــىء الوحيــد الــذى يجــد بالإنســـان ان يســـعى إليـــه هـــو الخيـــرات الماديـــة التـــى تجـــود بهـــا الحياة.والشـــىء نفســـه ينطبـــق علـــى المعـــايير الجماليـــة ، فالشـــعور والأحســاس بالجمــال وكــل الأحاســيس الإنســانية يمكــن فهمهــا بردهــا إلــى المبــدأ المــادى الواحــد، فهــى مجــرد تعبيــر عــن شــىء مــادى يوجــد فــى الواقــع المــادى. والمــادة تســبق التــاريخ ، وكــذلك فــإن كــل تطــور يتوقــف علــى الظــروف الماديــة والإقتصــادية (علــى ســبيل المثــال :تطــور أدوات الإنتــاج وعلاقــات الإنتــاج والمصــحلة الإقتصــادية) ونــوع الإنتــاج فــى الحيــاة الماديــة شــرط تطــور الحيــاة الإجتماعيــة والسياســية والعقليــة علــى العمــوم. فالبنــاء الفــوقى (الفكــرى والعقلــى والنفســى) يُــردُّ فــى نهايــة الأمــر وفــى التحليـــــــــــل الأخيـــــــــــر ، إلـــــــــــى المـــــــــــادة.

ويفــرق الــبعض بــين الماديــة المتطرفــة والماديــة المعتدلــة، وبــين الماديــة الســوقية والماديــة الجدليــة. فالماديــة المتطرفــة أو الســوقية تــذهب إلــى أن العــالم الحقيقــى هــو مجــرد مــادة تتغيَّــر فــى أحوالهــا وعلاقاتهــا الماديــة،وأن كــل مــا هــو إنســانى مجــرد حركــة للمــادة ،أمــا الماديــة المعتدلــة فتحــاول الوصــول إلــى رؤيــة أكثــر تركيبــاً، ومــع هــذا فهــى فــى نهايــة الأمــر وفــى التحليــل الأخيــر تفتــرض أســبقية المــادة علــى كــل الظــواهر التــى تُــردُّ بعــد كــل التركيـــب والتـــوهيم إلـــى المبـــدأ المـــادى الواحـــد. والماديـــة الديالكتيكيـــة

والتاريخيـــة لا تختلــف فــى جوهرهــا عــن ذلــك . فالماديــة الدياالكتيكيــة تصــدر عــن الإيمــان بمفهــوم المــادة التــى تعنــى الواقــع الموضــوعى((المعطى للإنســان فــى أحاسيســه، والــذى تصــوره أحاسيســنا وتعكســه، ولكــن وجــوده غيــر مرهــون بهــا)). أمــا الــوعى، فهــو صــفة المــادة الرفعيــة التنظــيم، ويظهــر بظهــور المجتمــع. والــوعى يعكــس الواقــع الموضــوعى ويكــون صــورة ذاتيــه منــه ، وهــو مــا يعنــى أســبقية المــادة علــى كــل شــىء. ويكمــن لــب النظريــة الديالكتيكيــة فــى بعــض القــوانين العامــة بحركــة الطبيعــة والمجتمــع والفكــر وأهمهــا: تحــول التغيــرات الكيفيــة إلــى كميــة وبــالعكس، ونفــى النفــى ، ووحـــــــــــــدة وصـــــــــــــراع الأضـــــــــــــداد.

وهنــاك جملــة مــن القــوانين التــى تكمــل القــوانين الســابقة وتجعلهــا أكثــر عيانيــة، وتعبَّــر عــن تــرابط الماهيــة والظــاهرة ، والمضــمون والشــكل ، والإمكــان والفعــل... إلــخ. وتــرى الماديــة الديالكتيكيــه أن مضــمون معارفنــا إنعكــاس للصــفات الموضــوعية للأشــياء. ولكــن بلــوغ الحقيقــة الموضــوعية لا يــتم دفعــة واحــدة وبصــورة مطلقــة. والقــوانين العامــة لتطــور العــالم تدرســها الماديــة الديالكتيكيــه تســرى علــى كــل الميــادين المنفــردة للنشــاط الإنســانى. والماديــة التاريخيــة تســحب الموضــوعات الأساســية للماديــة الديالكتيكيــة علــى الظــواهر الإجتماعيــة والتاريخيــة، ولــذا فــإن الماديــة التاريخيــة تــذهب إلــى أن الإنســان يظهــر نتيجــةً لعمليــة ماديــه حركيــه تفتــرض أســبقية المــادة علــى الفكــر، فحيــاة الإنســان تتطلــب المأكــل والمشــرب والمســكن والملــبس، وهــى أشــياء لا يجــدها جــاهزة فــى الطبيعــة فيضــطر

إلـى أنتاجهـا. وحـين ينـتج البشـر الأشـياء الضـرورية فـإنهم يمارسـون لونـاً خاصّـاً مـن نمـو الحيـاة ،ويـدخلون فـى علاقـات فيمـا بيـنهم . وفـى مجـرى إنتـاج الخيـرات الماديـة، يتكـون الإنسـان ذاتـه بوعيـه ونظراتـه وتطلعاتـه. وبـذلك يشـكل الإنتـاج المـادى الأسـاس (اللوجـوس أو المطلـق(الـذى يحـدد ،فـى نهايـة المطـاف وفـى التحليـل الأخيـر، نمـط حيـاة النـاس ووعـيهم وفكـرهم وحيـاتهم الروحيـة، بـل والحيـاة الإجتماعيـة بأسـرها. وفـى تصـورنا أن كـل الماديـات مهمـا بلغـت مـن صـقل وجدليـة واعتـدال ، ماديـات متطرفـة إن كانـت متسـقة مـع نفسـها ومـع مقـدماتها المعرفيـة، إذ يظـل جـوهر الأشـياء ماديًّـا ، ومـا عـدا ذلـك فتحـولات عرضـية ويظـل مركـز الكـون كامنـاً فيـه (المرجعيـة الكامنـة) ومـن ثـم العـالم المـادى.

وأى نمـوذج فكـرى، مهمـا بلـغ مـن مثاليـة أو غيبيـة، لابـد أن يتبنـى نموذجـاً تفسـيريًّا ماديًّـا حـين يتعامـل مـع بعـض الظـواهر ، فـالواقع مركـب والعناصـر الماديـة مكـون أساسـى فيـه. وقـد حققـت الماديـة نجااحاتهـا فـى العصـر الحـديث لأن النمـوذج المـادى عنـده مقـدرة تفسـيرية هائلـة إن نظرنـا إلـى الجانـب المـادى فـى حيـاة الإنسـان.ولكننا لـو نظرنـا فـى الجوانـب غيـر الماديـة (الأخلاقيـة والجماليـة والروحيـة)، فـإن مقدرتـه التفسـيرية تضـعف وتكـاد تنعـدم ، وتكمـن الهرطقـة الماديـة فـى أن الفلسـفة الماديـة لا تكتفـى بتفسـير بعـض جوانـب الواقـع وإنمـا تصـر علـى تفسـير كـل الواقـع بمـا فـى ذلـك الإنسـان فـى كـل جوانـب وجـوده، مـن خـلال مجموعـة موحـده مـن المقـولات التفسـيرية مسـتمدة مـن وجودنـا المـادى اليـومى، ثـم تَـرُد الواقـع

الطبيعـــى والإنســـانى إلــى مبـــدأ نهــائى واحـــد دون الحاجـــة إلــى إدخـــال مجموعـــة أخـــرى مـــن المقـــولات غيـــر الماديـــة المختلفـــة عـــن الأولـــى وهـــو مايبسط الواقع ويختزله.

وتعـــود جاذبيـــة الفلســـفات الماديـــة للســـببين التـــاليين:

1- المســـــــــــــــتوى المعرفـــــــــــــــي(الإبســـــــــــــــتمولوجي(

يمكننـــا أن نقـــول : أن التفســـير المـــادي للظـــواهر ســـهل ، فـــيمكن الحصـــول بشـــكل ســـريع علـــى المعلومـــات عـــن العـــالم المـــادي وقياســـها ، والتـــرابط المـــادي بـــين الظـــواهر أمـــر يمكـــن رصـــده بشـــكل موضـــوعي محســـوس ، وحركـــــــــــــة المـــــــــــــادة نتيجتهـــــــــــــا مباشـــــــــــــرة. وتجربـــة الطفـــل مـــع جســـده ، وهـــو أول شـــيء يدركـــه ، يشـــجع علـــى التفســـيرات الماديـــة .بـــل أن عاطفتـــه تجـــاه أمـــه تأخـــذ فـــي بـــدايتها شـــكلاً ماديًّـــا فـــي علاقتـــه مـــع بشـــديها ،فحبهـــا لـــه يأخـــذ شـــكل إطعامـــه . وهكـــذا ، فـــإن التفســـيرات الماديـــة راســـخة فـــي التجـــارب الأولـــى للإنســـان بعـــد خروجـــه مـــن الـــرحم ، ولـــذا فهـــو يجـــد راحـــة غيـــر عاديـــة فيهـــا إذ لا يضـــطر إلـــى التجريـــد والتجـــاوز إذ لا مســـاحات ولا ثنائيـــات . أمـــا العناصـــر غيـــر الماديـــة فـــي الواقـــع (مثـــل : العقـــل , الخيـــال ، الســـببية غيـــر المباشـــرة ، الظـــواهر التـــي لا يمكـــن رصـــدها بشـــكٍل متـــواتر ، العواطـــف التـــي لا تـــرتبط بالجســـد بشـــكل مباشـــر) ، فـــإن اكتشـــافها بتطلـــب إعمـــال العقـــل والتجريـــد ، وهـــو أمـــر صـــــعب علـــــى الكثيـــــر مـــــن البشـــــر.

2- المســـــــــــــــتوى النفســـــــــــــــي (الســـــــــــــــيكولوجي(

تحـول الفلسـفات الماديـة الإنسـان إلـى جـزء مـن كـلٍّ اكبـر ، فـلا يوجـد لـه هويـة أو حـدود أو إرادة عـم هـذا الكـل المـادي الـذي تُـرد إليـه . وهـذا يعنـى إنكـار الهويـة الفرديـة المسـتقلة والمسؤولية الخلقيـة و الاختيـار الحـر . والواقـع أن الامتـزاج الكامـل بالطبيعـة/ المـادة هـو شـكل مـن أشـكال فقـدان الـوعي والهويـة والحـدود وهـو مـا نسـميه النزعـة الرحميـة (و انتصـار الموضـوع علـى الـذات) ، وهـذا هـو الإغـراء الأساسـي الـذي يجابـه كـل البشـر ويتهـدد إنسـانيتهم ، وهـو جـوهر كـل الهرطقـات المعاديـة للإلـه والإنسـان ، ابتـداءً بالهرطقـة الغنوصـية وانتهـاءً إلـى الهرطقـات الحديثـة (مثـل النزعـة الطبيعيـة.(

[*]ولكـن الفلسـفة الماديـة بـرغم إغرائهـا ، تواجـه عـدة مشـاكل:

1- تـدعى الفلسـفة الماديـة أنهـا ليسـت أيديولوجيـة وإنمـا علـم طبيعـي ، وهـذا يفتـرض أن الفلسـفة الماديـة قـد قامـت بحصـر كـل المتغَّيـرات الماديـة والموضـوعية ورصـدها فـي علاقاتهـا المتشـعبة وأثبتـت صـحة مقولاتهـا. وهـو أمـر مسـتحيل علميًّـا.

كمـا أن الواجـب العلمـي يتطلـب ، بعـد حصـر كـل المتغيـرات والعناصـر والأسـباب وعلاقتهـا بعضـها بـبعض، إقـرار غلبـة عنصـر مـا علـى العناصـر

الأخـرى وإعطـاءه أسـبقية سـببية ،علـى أن تـتم هـذه العمليـة كـل مـرة ، وهـذا أمـر مسـتحيل مـن الناحيـة العلميـة .ولـذا فـإن مـا يحـدث فـي واقـع الأمـر ، هـو أن الفلسـفة الماديـة تواجـه الواقـع مسـلحة بميتافيزيقـا ماديـة غيـر واعيـة ، فهـي واعيـة أو تـؤمن بوجـود كليـات وتعميمـات تسـتند إلـى الإيمـان بوجـود كـل مـادي ثابـت متجـاوز للأجـزاء لـه هـدف وغايـة ، وبوجـود عقـل إنسـاني قـادر علـى رصـد كـل هـذا. وهـي أطروحـات نبيلـة،ولكنها ميتافيزيقيـة. فالثبـات والتجـاوز والهـدف لـيس مـن صـفات المـادة ، ومقـدرات العقـل علـى التعمـيم والتجـاوز مـن الصـعب تفسـيرها ماديًـا. وهـذا مـا أدركـه نيتشـه مـن البدايـة، حـين بَّـين ان الأنطولوجيـا الغربيـة، حتـى بعـد مـوت الإلـه ، أي بعـد ظهـور العقلانيـة الماديـة، احتفظـت بظـلال الإلـه علـى هيئـة هـذا الإيمـان بالكـل المـادي الثابـت المتجـاوز ذي الهـدف، وحـين نـادى بإزالـة ظـلال الإلـه تمامـاً والتخلـي عـن الميتافيزيقـا ، التـي تعنـي التخلـي عـن البحـث عـن الحقيقـة ذاتهـا ، فالحقيقـة تسـتدعى الثبـات والكليـة ، وعالمـاً متجـاوزاً لعالمنـا المـادي، عـالم الصـيرورة الماديـة الدائمـة والحلـول والكمـون الكامـل. وبعـد أن انطلقـت الفلسـفات الماديـة مـن إيمانهـا الراسـخ هـذا ، فإنهـا تعطـي أولويـة سـببية للعناصـر الماديـة (قـوانين الحركـة). وفـى حالـة الإنسـان ، تتـرجم السـببية الماديـة الصـلبة المطلقـة نفسـها إلـي تفسـير ظـاهرة الإنسـان فـي أطـار عنصـر مـادي واحـد (مـاركس والعنصـر الاقتصـادي، فوريـد والعنصـر الجنسـي ... إلـخ). وغنـى عـن القـول أن مـن يقـوم بالتجريـب والرصـد ، فـي الإطـار المـادي، لا يعيـد

اختبار مقولاته كل مرة . ولذا فهو يفترض صدقها بشكل دائم ومما يجدر ذكره أن الحقيقة العملية تقريبية.

2- العلـم التجريبـي محـدود ولا يسـتطيع أن يتعامـل مـع كـل أنـواع الخبـرات وجوانبهـا، والطريقـة التجريبيـة ذاتهـا تقريبيـة، وهـي نتـائج تنطبـق فـي المتوسـط أي علـى المجموعـات الكبيـرة ، ولـيس علـى كـل مفـردة بـذاتها.

3- ظهـر الفكـر المـادي فـي أحضـان الرؤيـة النيوتنيـة للكـون، وعـالم نيـوتن عـالم محكـم مغلـق يتسـم بالحتميـة الميكانيكيـة. وتفسـير العـالم ، حسـب نيـوتن ، يسـتند إلـى مـا يلـي: آليـات الوجـود الفيزيـائي للـذرة (الجزئـي) وقـوانين الحركـة. وانطلاقـاً مـن هـذا ، ظهـرت الرؤيـة العلميـة الماديـة التـي نـادت بأنـه لا يمكـن الحـديث عـن تـأملات خـارج معامـل البحـث ونتـائج التجريـب . وقـد ظلـت هـذه الرؤيـة مسـيطرة تمامـاً حتـى نهايـة القـرن التاسـع عشـر . ومنـذ ذلـك ، بـدأت الضـربات توجـه إلـى هـذا النظـام المغلـق والسـببية الصـلبة. وأدَّت نظريـة الكـم (الكوانتـام) و لا تحـدد هـايزنبرج ونظريـة النسـبية إلـى إضـعاف قيمـة الافتراضـات الماديـة مثـل: الجبريـة والسـببية ، و مطلقيـة كـون الفضـاء والزمـان ...إلـخ، وقـد ظهـر أن ثمـة وجـوداً لا ماديـاً للطاقـة الذريـة هـو الوجـود المـوجي. والتعامـل مـع ظـاهرة الضـوء أثبـت أن الضـوء يتصـرف فـي مواضـع تجريبيـة باعتبـاره مكونـاً مـن جزيئـات وحـزم ضـوئية (فوتونـات) ، وأنـه فـي مواضـع تجريبيـة أخـرى يتصـرف باعتبـاره مكونـاً مـن موجـات) و قـد قـال أحـد علمـاء الطبيعـة متهكمـاً: فـي يـوم السـبت و الاثنـين والأربعـاء نُعـرَّف الضـوء بأنـه جزئيـات ، ثـم يصـبح موجـات بقيـة الأسـبوع. (وقـد أوصـلتنا النتـائج التجريبيـة إلـى

صيغة رياضية لما هو مادي بحت في المادة ، وما هو في الوقت ذاته فوق مادي في المادة نفسها (وهو ما يُطلق عليه معادلة دي بروجلى). وهذا ما يعني ببساطة أن لكل كيان مادي موجة مصاحبة له ، وأن تلك الموجة تزيد كلما صغرت كتلة ذلك الكيان ، وهى تظهر بوضوح في الأبعاد المجهرية من ذلك العالم ، أي أن اللامادي موجود فى قلب المادي.

وقد أسقط العلم الحديث تدريجيًّا فكرة السببية الصلبة القديمة ، ولم يعد يطمح إلى معرفة الكون معرفة كاملة كما كان يطمح علماء القرن التاسع عشر.فبعد مئة عام من التجارب العلمية ، أكتشف الإنسان أنه كلما اكتشف وسيطر على شيء ما ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التى لايعرفها ، ولايمكنه السيرطة عليها ، من ذلك تجربتنا مع الذرة ، هذا الشيء الذى يتحرك دون قانون والذى يصعب رصده ، وكلما رصدناه اكتشفنا عناصر جديده فيه تحيرنا، ثم حطمناه لنؤسس الفردوس الأرضى ، وانتهى بنا الأمر إلى أنه قد يدمرنا وكرتنا الأرضية تماماً وها نحن نمسك بكرة اللهب ، أى العادم النووى والأسلحة النووية التى يمكنها تدمير العالم عشرات المرات، وكأننا بروميثيوس أبله سرق النار من الآلهة ولا يعرف ماذا يفعل بها بعد ذلك ، وبدلاً من الاستفادة من النار فإنها تحرق أصابعه. وقد اكتشفنا مؤخراً أيضاً حدود الحاسوب (الكومبيوتر) وأنه لن يأتى لأحد بالخلاص ، بل أننا بدأنا

نكتشف مخاطره على عقل الأطفال الذين يستخدمونه وعلى عيون من يقضون سحابة (أو سواد) يومهم يتطلعون إلى شاشته . ويقال الشيء نفسه بالنسبة إلى الهندسة الوراثية، فكثير من العلماء (من الذين حققوا أكتشافات فى هذا المجال) يقفون ضد إجراء التجارب العلمية خوفاً من عواقبها الوخيمة. قد قال أحدهم : أن الأخطاء فى التجارب العلمية فى الماضى، كأن يحدث أنفجار أو ما شابخ ،كانت تتم داخل دورة الطبيعه لا تتحدى قوانينها ، ولهاذ يمكن أن تترك بضع سنوات لتقوم العوامل الطبيعيه بإصلاح ما أفسدت يد الإنسان . بل إن التلوث الإشعاعى قد يستمر لمدة 520 ألف سنة، ولكنه مع هذا يظل داخل الزمان ودورة الطبيعة. أما التجارب فى الهندسة الوراثية فهى قد تأتى بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها، فهى مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية.

ولعل اكتشاف الثقوب) الثغرات (السوداء في الكون له دلالة علمية ورمزية في الوقت ذاته. فداخل هذه الثقوب تتحطم قوانين علم الطبيعة والأحياء ويتحطم الزمان والمكان ويتم التهام الضوء (العنصر الثابت في الطبيعة). والثقوب السوداء يمكننا أن نرى أثرها على ما حولها ، ولكننا لا نعرف كنهها تماماً فهي موجودة و أساسية لا يمكن تفسير الظواهر دونها ، ولكنها مع هذا غير خاضعة للتحكم الإنساني ولا نفهم كنهها تماماً . وقد ظهرت مؤخراً نظرية الفوضى (كيوس chaos)وهي ضربة أخرى للعالم المادي المغلق المصمت.

إن السببية الصلبة المطلقة التي لا يزال يتمسك بها بعض علماء الإنسانيات في القرن العشرين ، خصوصاً في عالمنا العربي ، لم يعد لها سند علمي، فهي نتاج علم القرن التاسع عشر ، الذي أكتشف الجميع كبرياءه الساذج وإدعاءه الأجوف بأن ما هو غير معروف سيتم معرفته ، وأنه في خلال ثلاثين عاماً- كما قال أحد العلماء آنذاك –سيعرف الإنسان كل شيء .ولكن الإله ستر وحمى الإنسان من الاختفاء (كما يبشر الفلاسفة الماديون من البنيويين وفلاسفة ما بعد الحداثة.(

–4أدعت الفلسفة المادية ، في البداية، أن المادي هو ما تدركه الحواس، وأن ما لا تدركه غير مادي وبالتالي غير موجود ولكن الذرات وجزيئاتها لا تُدرَك بالحواس ، وبعضها لا كتلة له ، وحركة الذرة لا تتبع نمطاً محدداً ، والثقوب السوداء تحطم قوانين الزمان والمكان . ومن

ثـم، أعيـد تعريـف المـادي بأنـه كـل شـيء يوجـد وجـوداً موضـوعياً ، أي إنـه الشـيء الـذي لا يعتمـد فـي وجـوده علـى عقلنـا أو وعينـا بـه (وبهـذا المعنـى ، فـإن الفلسـفة الماديـة لا يمكنهـا أن تسـتبعد العناصـر الغيـر ماديـة إن تجلـت موضـوعياً فـي واقعنـا(، وهـو مـا يعـود بنـا إلـى نقطـة البدايـة.

5- مسـألة أزليـة المـادة أصـبحت مسـألة مشـكوكاً فيهـا علميًّـا . فالمـادة تتحـول إلـى طاقـة والطاقـة تتحـول إلـى مـادة . وقابليتهـا للتحـول تعنـى أن بقاءهـا فـي هيئتهـا المعَّينـة كـان معتمـداً علـى ظـروف خارجـة عـن ذاتهـا ، فلمـا زالـت تلـك الظـروف زالـت تلـك الهيئـة.إذن ، فهـي ليسـت معتمـدة فـي وجودهـا علـى نفسـها ومـن ثـم تسـتحيل أن تكـون آليـة. وكـل مـا يتحلـل ويتحـول فلـيس بـأزلي غيـر حـادث بـل هـو بالضـرورة حـادث .فمـا المـادة الأزليـة إذن؟ أنهـا المـادة التـي لا خصـائص لهـا ولا صـفات .وهـى مـادة لا توجـد إلا فـي الأذهـان ، فهـي مقولـة فلسـفية يـرى أصـحابها أن لهـا مقـدرة تفسـيرية عاليـة.

6- خلـق العـالم بالصـدفة هـو مجـرد افتـراض وتخمـين ولـيس حقيقـة علميـة. ومـن الاعتراضـات المعروفـة علـى هـذا الـرأي أن تكـوين كـائن كالإنسـان مـن تلـك الـذرات بالمصـادفة أكثـر بُعـداً مـن احتمـال قـرد يخـبط علـى آلـة كاتبـة فيخـرج لنـا بالمصـادفة قصـيدة رائعـة. ولكـي نصـدق نظريـة الخلـق بالمصـادفة ، لابـد أن نـؤمن باحتمـال أن يلقـى إنسـان (أو قـرد) بـالنرد ويحالفـه الحـظ ويـأتي 6/6 لـيس مـرة واحـدة ولا ألـف وإنمـا

ألف مرة متتالية   .كما أن المصادفة وحدها لا تجدي في تفسير الخلق ، فإن تكوين الكائنات من تلك الذرات الهائمة يعنى أنها كانت مصممة بحيث أنها إذا اجتمعت بهذه الطريقة تكون منها ذهب ، وإذا اجتمعت بتلك الطريقة يتكون منها ماء ، وهكذا. أي أن التصميم يسبق الصدفة.

ويقول على عزت بيجوفيتش : أن تشارلز يوجين جاى ، عالم الطبيعة السويسري ، قد حاول أن يقوم بحساب احتمالية الحلق بالصدفة لُجزيء واحد من البروتين ، فوجد أن خلق مثل هذا الجزء قد يستغرق 34201 بليون سنة تحت ظروف 41015 اهتزازة في الثانية . وتبعاً لذلك ، لا يوجد إمكانية لأن تكون الحياة قد نشأت بالصدفة خلال 4.5 بليون سنة التي يُفترض أنها عمر الأرض.

وقد أعاد هذا الحساب مانفريد إيجن من معهد ماكس بلانك لكيمياء الطبيعة الحيوية في جوتنجن بألمانيا ، فأثبت أن جميع المياه على كوكبنا ليست كافية لكي تنتج بطريق الصدفة جُزيئاً بروتينًّا واحداً، حتى ولو كان الكون كله مليئاً بمواد كيميائية تتحد بعضها مع بعض بصفة دائمة. فإن البلايين العشرة من السنين منذ نشأة الكون لم تكن كافية لإنتاج أي نوع من البروتين.

وقال العالم الروسي بلاندين)) : لو أن مليون معمل على الأرض عملت لبضعة ملايين من السنين في تركيب العناصر الكيميائية ، فإن احتمال خلق حياة في أنبوبة اختبار ستكون شيئاً نادراً . وطبقاً لحساب هولدن ، فإن الفرصة هي 1310. هذا هو الأمر بالنسبة إلى التنظيم الذاتي لجُزيء واحد من البروتين الذي إذا قورن بكائن حي فإنه يشبه طوبة في مواجهة مبنى كامل . إن العلم – وخصوصاً بيولوجيا الجُزيئات – قد أستطاع أن يضيق الثغرة الهائلة بين الحياة والمادة الميتة ، ولكن

الثغـــرة الصـــغيرة بقيـــت مســـتحلية العبـــور . ولا شـــك فـــي أن الأســـتحفاف بهـــذه الثغـــرة يعـــدُّ خطـــأً علميًّـــا . ومـــع ذلـــك ، فهـــذا هـــو الموقـــف الرســـمي للماديـــة.((

وكيـــف يمكـــن تفســـير التبـــاين الظـــاهري التـــالي: إذا وجـــدنا فـــي اكتشـــاف أثـــري حجـــرين موضـــوعين فـــي نظـــام معـــين (أو قُطِعـــا لغـــرض معـــين) ، فإننـــا جميعـــاً نســـتنتج بالتأكيـــد أن هـــذا مـــن عمـــل إنســـان فـــي الزمـــان القـــديم ،فـــإذا وجـــدنا بـــالقرب مـــن الحجـــر جمجمـــة بشـــرية أكثـــر كمـــالاً وأكثـــر تعقيـــداً مـــن الحجـــر بدرجـــة لا تُقـــارن فـــإن بعضـــاً منـــا لـــن يفكـــر فـــي أنهـــا مـــن صـــنع كـــائن واعٍ، بـــل ينظـــرون إلـــى هـــذه الجمجمـــة الكاملـــة أو الهيكـــل الكامـــل كأنهمـــا قـــد نشـــأ بـــذاتهما او بالصـــدفة– هكـــذا مـــن دون تـــدخل عقـــل أو وعـــى .ألـــيس فـــــــــي إنكـــــــــار الإنســـــــــان لله هـــــــــوى بـــــــــيِّن ؟

أمـــا هـــؤلاء الـــذين يـــرون أن المـــادة (مـــن خـــلال الصـــدفة وحـــدها) قـــد أدَّت إلـــى ظهـــور عناصـــر متجـــاوزه للمـــادة مثـــل الإنســـان والـــوعي والعقـــل والغائيـــة، فهـــم فـــي نهايـــة الأمـــر ، ينســـبون للمـــادة مقـــدرات غيـــر ماديـــة ، ومـــن ثـــم فـــإنهم يكونـــون قـــد خرجـــوا مـــن مقاصـــد الفلســـفة الماديـــة، خصوصـــاً وأن فرضـــياتهم لا تخـــرج عـــن كونهـــا تكهنـــات عنيـــدة طفوليـــة تضـــمن لهـــم الاســـتمرار فـــي ماديتهم وتضـــمن لهـــم فـــي الوقـــت ذاتـــه تفســـير مـــا حـــولهم مـــن تركيـــب ووعـــى وغائيـــة (ولعـــل هـــذا هـــو احـــد أشـــكال محاولـــة الإنســـان

العلمـــــاني الوصـــــول إلـــــى ميتافيزيقـــــا دون أعبـــــاء أخلاقية،فالإصـــــرار علـــــى أسطورة الأصل المادي هو الذي يحميهم من المسؤولية الأخلاقية!(

-7لكن التحدي الأكبر للفلسفة المادية هو ظاهرة الإنسان بكل ما فيها من أسرار وتركيبية، والتي أخفق العلم الطبيعي تماماً في إدخالها في قفص السببية الصلبة المطلقة الحديدي.

وفى إطار الطبيعة /المادة ظهر ما يمكن تسميته بالإنسان الطبيعي أو الإنسان الطبيعي/ المادي . وهو إنسان لا توجد مسافة تفصله عن الطبيعة ، فهو جزء عضوي لا يتجزأ منها ، لا يمكنه تجاوزها ، فضاؤه فضاؤها ، وسقفها هو سقفه، وهذا يعنى أنه يخضع تماماً لقوانينها ، تحرَّكه أينما شاءت ، لا يمكنه الفكاك من حتمياتها. ويمكن تفسيره في أطار مقولات طبيعية /مادية مستمدة من عالم الطبيعة /المادة :وظائفه البيولوجية (الهضم، التناسل، اللذة الحسية) ودوافعه الغريزية المادية(الرغبة في اللقاء المادي، القوة والضعف، الرغبة في الثروة) والمثيرات العصبية المباشرة(بيئته المادية ، غدده ، جهازه الهضمي) فهو تعبير حقيقي عن الطبيعة / المادة، ، جوهره ليس جوهراً إنسانياً وإنما جوهر طبيعي/مادي، فهو لا يختلف بشكل جوهري عن الكائنات الطبيعية الأخرى.

ونحن نضع في المقابل الإنسان الطبيعي الإنسان الإنسان ، وهو إنسان غير طبيعي/ مادي يحوى داخله عناصر (ربانية) متجاوزة لقوانين الحركة (التي تسرى علي الإنسان والحيوان) ومتجاوزة للنظام الطبيعي/

المـــادي . هـــذه العناصـــر هـــي التـــي تشـــكل جـــوهر الإنســـان والســـمة الأساسية لإنسانيته وتفصله عن بقية الكائنات وتميِّزه بوصفه إنساناً.

-*المادية القديمة والمادية الجديدة

يمكننا التمييز بين نوعين من المادية يرتبطان بمرحلتين تاريخيتين مختلفتين:

المادية القديمة والمادية الجديدة. والمادية القديمة هي المادية التي تستند إلى العقلانية المادية ، أي الإيمان بأن العالم ((يحوى داخله ما يكفى لتفسيره دون الحاجة إلى وحى أو غيب))، وهذه العبارة تعنى ما يلي:

1- أن العقل مستقل بذاته ، قادر على التفاعل مع الطبيعة (والواقع الموضوعي) بشكل فعال ، وعلى الوصول إلى القوانين الكامنة في المادة وتجريدها على هيئة قوانين عامة، وأنه يمكنه ، انطلاقا من ذلك ، أن يطور منظومات معرفية وأخلاقية ودلالية وجمالية تهديه في حياته، ويمكنه على أساسها أن يفهم الماضي والحاضر والمستقبل وأن يُرشَّد حاضره وواقعه.

2- أن الواقع الموضوعي يحوى داخله قوانينه التي يمكن للعقل استيعابها، وهذا الواقع بالتالي ليس مجرد أجزاء غير مترابطة ، وليس مجرد حركة عشوائية, وإنما هو كل متماسك مترابطة أجزاؤه برباط السببية الصلبة، بل والمطلقة، والعقل حينما يدرك الواقع فإنه يدرك هذا الكل المتماسك الثابت المتجاوز للأجزاء المتغيرة، ويدرك أن حركة الأجزاء ليست حركة عشوائية، وإنما هي تعبير عن الكل الثابت المتجاوز، ولذا فعي حركة لها معنى وهدف ، ولها معياريتها ومعقوليتها ،

فمـــا يحـــدث يحـــدث حســـب قـــانون ولـــيس بالصـــدفة.

-والعقلانيـــة الماديـــة تســـتند إلـــى افتراضـــين فلســـفيين أساســـيين:

-1العقـــل القـــادر علـــى إدراك الكليـــات.

-2الكـــل المـــادي الثابـــت المتماســـك المتجـــاوز ذو الغـــرض.

فالرؤيـــة العقلانيـــة الماديـــة تســـتند إلـــى افتـــراض وجـــود عقـــل مســـتقل قـــادر علـــى إدراك مـــا نسـميه الكـــل المـــادي الثابـــت المتجـــاوز ذا الهـــدف. فلـــو أن العقـــل قـــادر علـــى الإدراك بمفـــرده ، دون أن يكـــون هنـــاك كليـــات فـــي الواقـــع ، لأدرك جزئيـــات ولمـــا أمكنـــه أن يؤســـس منظومـــات معرفيـــة وأخلاقيـــة عقلانيـــة. والعكـــس صـــحيح أيضـــاً، فلـــو أن الواقـــع هـــو هـــذا الكـــل المـــادي الثابـــت المتجـــاوز ذي الغـــرض ولا يوجـــد عقـــل يدركـــه ، فإنـــه لا يمكـــن أن تنشـــأ منظومـــات معرفيـــة وأخلاقيـــة عقلانيـــة بمفردهـــا.

ولكـــن ظهـــر داخـــل المنظومـــة الماديـــة ذاتهـــا مـــن وجَّـــه ســـهام نقـــده لهـــذه الماديـــة باعتبارهـــا ميتافيزيقـــا ماديـــة أو إنســـانية ميتافيزيقيـــة أو حتـــى مثاليـــة ماديـــة. فهـــم يقولـــون : مـــا معنـــى هـــذا العقـــل الكلـــي القـــادر علـــى إدراك الكليـــات؟ مـــا الفـــرق بـــين العقـــل والـــدماغ؟ ألـــيس العقـــل هـــو مجموعـــة مـــن الخلايـــا الماديـــة شـــأنه شـــأن كـــل مـــا هـــو مـــادي؟ لمـــاذا يُنســـب للعقـــل المقـــدرة علـــى تجـــاوز الأجـــزاء والإفـــلات مـــن قبضـــة الصـــيرورة؟ ألـــيس هـــو ذاتـــه جـــزءاً مـــن المـــادة المتغيـــرة ومـــا ينطبـــع عليـــه هـــو أحاســـيس ماديـــة متغيـــرة وليســـت

ظـــواهر مترابطـــة متماســـكة لهـــا معنـــى؟ ولـــذا فهـــم يجـــدون أن المـــادة المتحركـــة المتغيـــرة محايـــدة لا تتســـم بـــالخير أو بالشـــر ولا بـــالقبح أو الجمـــال. والمنظومـــات المعرفيـــة والأخلاقيـــة والجماليـــة التـــي تـــدعي الماديـــة، لـــيس لهـــا أي أســـاس مـــادي ، فهـــي مـــن إفـــراز عقـــل إنســـاني يبحـــث عـــن الطمأنينـــة ويـــود أن يطبـــع الثبـــات علـــى الواقـــع.

إن ثنائيـــة الإنســـان والطبيعـــة (وكـــل الثنائيـــات الأخـــرى) داخـــل الإطـــار المـــادي هـــي تعبيـــر عـــن ميتافيزيقـــا التجـــاوز مـــن خـــلال المـــادة ،أو ميتافيزيقـــا التجـــاوز التـــي تـــدعي الماديـــة ، وهـــى ليســـت مـــن الماديـــة فـــي شـــيء . والكـــل المـــادي الثابـــت المتماســـك المتجـــاوز ذو الغـــرض هـــو أيضـــاً وهـــم مـــادي ، فكيـــف يمكـــن للكـــل أن يكـــون ماديـــاً والمـــادة أجـــزاء، وكيـــف يمكـــن أن يكـــون ثابتـــاً والمـــادة فـــي حالـــة حركـــة وصـــيرورة، وكيـــف يمكـــن أن يكـــون متجـــاوزاً والمـــادة لا تعـــرف التجـــاوز ،وكيـــف يمكـــن أن يكـــون ذا غـــرض خاضـــع لســـببية صـــلبة ، والمـــادة حركـــة بـــلا هـــدف ولا غايـــة؟ إن العقلانيـــة الماديـــة فـــي تصـــورهم هـــي شـــكل مـــن أشـــكال المرجعيـــة المتجـــاوزة الماديـــة، وهـــذا تنـــاقض كامـــل .بـــل إن أي حـــديث عـــن تجـــاوز وثبـــات هـــو ســـقوط فـــي ميتافيزيقـــا التجـــاوز بـــرغم الماديـــة المعلنـــة. بـــل هـــي إشـــارة للأصـــل الإلهـــي للكـــون، إذ لا يمكـــن أن يكـــون هنـــاك تجـــاوز للصـــيرورة إلا بالاســـتناد إلـــى نقطـــة خـــارج الصـــيرورة، خـــارج النظـــام الطبيعـــي، أي إن الميتافيزيقـــا الماديـــة تسقط لتصبح ميتافيزيقا إيمانية شاءت أم أبت.

ولـذا , يصـر هـؤلاء المـاديون الجـدد (أصـحاب مـا نسـميه مـذهب الماديـة الجديـدة) علـى ضـرورة الإبتعـاد عـن أي تجـاوز أو أثبـات و الخضـوع التـام للماديـة الحقيقيـة , أي للصـيرورة.هذا الخضـوع يعنـي إلغـاء الثنائيـات و كـل الحـدود و الكليـات و الثوابـت والسـببية و أي شـكل مـن أشـكال الصـلابة , و هـو يعنـي أيضـاً إنكـار الأصـل الإلهـي , علـى أن يقبـى الإنسـان فـي قبضـة الصـيرورة و يصـبح مركـز العـالم (كامنـاً فيـه تمامـاً) لا يتمتـع بـأي تجـاوز ومـن ثـم هـو لـيس بمركـز , و إلغـاء المركـز يعنـي إلغـاء الثنائيـات: ثنائيـة الـذات و الموضـوع , و الـدال و المـدلول , والشـكل و المضـمون و الخيـر و الشـر , و الوسـائل و الغايـات , و الإنسـان و الطبيعـة , و المقـدَّس والمـدَّنس , و الأزلـي والزمنـي , ولا يبقـى سـوى المـادة المتغيـرة المتحركـة التـي لا هـي كليـة و لا ثابتـة و لا متجـاوزة و لا اتجـاه لهـا ولا معنـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــى.

و فـي إطـار الماديـة القديمـة ,كـان ثمـة بحـث دائـب عـن نظـم معرفيـة وأخلاقيـة تسـتند الـى أسـاس مـادي راسـخ (تمامـاَ مثـل الميتافيزيقيـا الإيمانيـة التـي تسـتند الـى أسـاس غيـر مـادي راسـخ) , وأمـا الماديـة الجديـدة فهـي تـرفض تمامـاً فكـرة الأسـاس , ففكـرة الأسـاس ذاتهـا هـي جـوهر الميتافيزيقيـا , و المطلـوب الآن هـو الارتبـاط بالصـيرورة ورفـض الأسـاس , و التطهـر تمامـاً مـن أي أثـر للميتافيزيقـا ,و لكـن رفـض الأسـاس لابـد أن يكـون جـذرياً ,لـذا لا يضـع المـاديون الجـدد الوجـود فـي مقابـل العـدم و المطلـق فـي مقابـل النسـبي ثـم يثبتـون النسـبية العدميـة , بـل إنهـم

يحــاولون تجــاوز هــذه الثنائيــة ذاتهــا ويبحثــون عــن الثابــت / المتغيَّــر و المطلــق النســبي ! (الــذي يُــذكر الإنســان بيهــوه إلــه اليهــود باعتبــاره إلــه الشــعب اليهــودي وحــده , مطلــق ذاتــي !) , فهــو هنــا , دون شــك مطلــق /نســــــــبي,ثابت/متغير, موضــــــــوعي/ذاتي.

والماديــة الجديــدة ليســت جديــدة تمامــا، فقــد أدركهــا الســفطائيون منــذ البداية،فقــد أكــدوا أن العــالم فــي حركــة دائمــة وأن العقــل غيــر قــادر علــى الوصــول إلــى الواقــع، وأنــه لــو وصــل إليــه فلــن يمكنــه التعامــل معــه، ولــو تعامــل معــه فلــن يمكنــه التواصــل مــع العقــول الأخــرى، ولــو تواصــل مــع العقــول الأخــرى فلــن يجــدي هــذا فتــيلا، فــالواقع الموضــوعي ذاتــه فــي حركــة دائمــة ولايخضــع لأي قــانون، أي إن العلاقــة التفاعليــة التبادليــة بــين العقــل والطبيعــة، التــي تشــكل أســاس الماديــة القديمــة، أســاس غيــر راســخ ومنــذ عصــر النهضــة فــي الغــرب والاســتنارة،كــان هنــاك دائمــا دعــاة الاســتنارة المظلمــة : فكــان هنــاك هــوبز ينبــه الــى الــذئب الــرابض فــي الإنســان والمــاركيز دي صــاد الــذي ادرك عــدم اكتــراث الطبيعــة بالغائيــة الانســانية وادرك الصــيرورة الكاملــة ، فقــرر مــن البدايــة أن يســقط فــي قبضــتها ويــدخل حديقــة الحيــوان الــي رآهــا هــوبز فيعــذب الضــحايا ويقتلهــا حتــى يــدخل علــى نفســه المتعــة الجنســية الحقــة!ومع هــذا دخلــت الفلســفة الغربيــة مرحلــة عقلانيــة ماديــة تــدور فــي إطــار الكــل الثابــت المــادي المتجــاوز حــى منتصــف القــرن التاســع عشــر. وحــين بــدأ شــوبنهاور مرحلــة الســيولة الشــاملة ، جعــل مــن الإرادة مطلقــة النســبي، ثابــة المتغيــر ثــم جــاء

نيتشه بإرادة القوة وتوالت الثوابت المتغيرة، فهناك برجسون ووثبه الحياة (إيلان فيتال) والفينومنونوجيا وعالم الحياة (ليبنزفيلت)والبنيوية ومفهوم البنية، وكل هذه الفلسفات تقف بشراسة ضد الفلسفة الهيجيلية ومع هذا فإن مطلقها المتغير يشبه في كثير من الوجوه العقل الهيجلي المطلق غير المكتمل الذي يصل إلي كماله في التاريخ داخل الزمان فهو مشروع مستمر يدور حول ثابت متغيرمطلق نسبي لايصل إلى ثباته وإطلاقه الكاملين إلا في نهاية التاريخ.وهنا ظهر دريدا ليكمل مشروع المادية الجديدة فيعلن أن المطلق النسبي الثابت المتغير يسقط هو الاخر في المتافيزيقا إذ إنه ينسب لنفسه التجاوز والثبات ولذا لابد من الإصرار على الصيرورة النسبية والاحتمالية الكاملة وإنكار أي سببية، والإصرار على أسبقية اللغة على الواقع وهو مايعني أن لعب الدوال وراقصها هو الحقيقة الواحدة فيحدث تناثر للمعنى في النص والنصوص ولايبقى شئ سوى الصيرورة الحقة ورقص القلم والقصص الصغرى التي ليس لها معنى عام ويختفي الحق والحقيقة ويصبح من لغو الحديث الإشارة إلى إقامة العدل في الأرض.

إن المادية الجديدة كامنة في المادية القديمة , و مع هذا فهي تختلف عنها جوهرياً , فالمادية الجديدة ليست ثورة ضد الميتافيزيقيا الإيمانية و حسب , و إنما هي أيضاً ضد الميتافيزيقيا المادية , بكل إيمانها بالثبات و التجاوز و الإنسانية مقدرة العقل على إدراك الواقع و تجريد قوانينه منه , بمعنى أنها ثورة على العقلانية المادية ذاتها.



-العقلانية المادية و اللاعقلانية المادية

ويرتبط مفهوم المادية القديمة و الجديدة بمفهوم العقلانية المادية و اللاعقلانية المادية , و العقلانية هي الإيمان بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة من خلال قنوات إدراكية مختلفة من بينها الحسابات المادية الصارمة دون استبعاد العاطفة و الإلهام و الحدس و الوحي, و الحقيقة حسب هذه الرؤية يمكن أن تكون حقيقة مادية بسيطة , أو حقيقة إنسانية مركبة ,أو حقائق تشكل إنقطاعاً في النظام الطبيعي.

و من ثم يمكن لهذا العقل أن يدرك المعلوم ولا يرفض وجود مجهول , و هذا العقل يدرك تماماً أنه لا)) يؤسس ((نظماً أخلاقية أو معرفية , فهو يتلقى بعض الأفكار الأولية و يصوغها استنادا إلى المنظومة الأخلاقية الأولية و يصوغها استناداً إلى المنظومة أخلاقية و معرفية مسبقة,

ولكن هناك من يذهب الى أن العقلانية هي الإيمان بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة , بمفرده دون مساعدة من عاطفة أو إلهام أو وحي , و بأن الحقيقة هي الحقيقة المادية المحضة لتي يتلقاها العق لوحدها من خلال الحواس , و بأن العقل إن هو إلا جزء من هذه الحقيقة المادية فهو يُوجد داخل حيز التجربة المادية محدوداً بحدودها (لا يمكنه تجاوزها) , و أنه بسبب ماديته هذه قادر على التفاعل مع الطبيعة/

المادة , و يمكنه إنطلاقاً منها (و منها وحدها)
أن)) يؤسس ((منظومات معرفية وأخلاقية ودلالية و جمالية تهديه في حياته , و يمكنه على أساسها أن يفهم الماضي و الحاضر ويفسرهما , و يرشد حاضره وواقعه و يخطط لمستقبله .

و نحن نذهب الى نه لا توجد علاقة ضرورة بين العقلانية و المادية , فهناك نظم سياسية مادية عقلانية و نظم عقلانية ليست مادية ,فالنظام السياسي الأمريكي مبني على فصل الدين عن الدولة , و قد نجح الأمريكيون في بعض مراحل تاريخهم على الأقل في تطوير نظام عقلاني يعبر عن مطامع الشعب الأمريكي بشكل معقول , و النظام النازي هو الآخر كان نظاماً مادياً شرساً في ماديته و لكنه كان عقلانياُ بصورة تامة وكان يتحرك في إطار نظريه العرقية الشمولية التي شكلت مرجعيته المادية الكامنة , و النظام الستاليني ,كان هو الآخر نظاماً مادياً نموذجياً ,و لكن لا يمكن لأحد أن يزعم أنه كان نظاماَ عقلانياً, و هناك نظم تستند الى عقائد دينية يذخر بها تاريخ الإنسان.

بل إننا نذهب الى أن العقلانية المادية تؤدي في مراحلها المتقدمة الى اللاعقلانية المادية , فالعقل المادي –كما أسلفنا – عقل تفكيكي عدمي غير قادر على التركيب أو التجاوز ,و يتضح هذا من أنه عقل قادر على إفراز قصص (نظريات) صغرى مرتبطة بفضائها الزمني و المكاني المباشر على أحسن تقدير) كما يقول دعاة ما بعد الحداثة

, (أي إنـه قـادر علـى إفـراز مجموعـة مـن الأقـوال التـي ليسـت لهـا أيـة شـرعية خـارج نطاقهـا المـادي المباشـر و الضـيق و المحسـوس) فالعقـل المـادي يُـدرك الواقـع بطريقـة حسـية مباشـرة (ومـن ثـم فهـو عقـل عـاجز عـن إنتـاج القصـص الكبـرى أو النظريـات الشـاملة ,و عـاجز عـن التوصـل للحقيقـة الكليـة و المجـردة التـي تقـع خـرج نطـاق التجريـب , و لـذا فالعقـل المـادي لا يُنكـر الميتافيزيقيـا و حسـب ,و إنمـا سـنكر الكليـات تمامـاً و ينتهـي بـه الأمـر بـالهجوم علـى العقـل الإنسـاني والعقـل النقـدي , لأنهمـا يتوهمـان أنهمـا يتمتعـان بقـدر مـن الإسـتقلال عـن حركـة الطبيعـة / المـادة,, و بـذلك يختفـي الإنسـان بوصـفه مرجعيـة نهائيـة ثـم تختفـي سـائر المرجعيـات , و تصـبح الإجـراءات هـي الشـيء الوحيـد المتفـق عليـه و هكـذا لا يتحـرر العقـل المـادي مـن الأخـلاق و حسـب و إنمـا يتحـرر مـن الكليـات و الهـدف و الغايـة و العقـل , ومـن ثـم تتحـول العقلانيـة الماديـة إلـى الاعقلانيـة الماديـة .

و إن كانـت العقلانيـة الماديـة أفـرزت فكـر حركـة الاسـتنارة و الوضـعية المنطقيـة و الكـل المـادي المتجـاوز للإنسـان , فقـد أفـرزت اللاعقلانيـة الماديـة النيتشـوية و الوجوديـة و الفينومونولوجيـة و هايـدجر و مـا بعـد الحداثـة , و الإنتقـال مـن التحـديث الـى الحداثـة و إلـى مـا بعـد الحداثـة هـو الإنتقـال مـن العقلانيـة الماديـة التـي تـربط بـين التجريـب و العقلانيـة) فـي مرحلـة الماديـة القديمـة و مرحلـة الماديـة الصـلبة (الـى اللاعقلانيـة الماديـة التـي تفصـل بينهمـا , فيـتم التجريـب دون ضـابط ودون إطـار) فـي

مرحلـــة الماديـــة الجديـــدة والســـيولة الشـــاملة, (و تســـود الآن فـــي مجـــال العلـــوم نزعـــة تجريبيـــة محضـــة تـــرفض الكليـــات العقليـــة (إنســـانية كانـــت أم ماديـــة) و تلتصـــق تمامـــاً بالمـــادة و حركتهـــا و عـــالم الحـــواس.

و مـــع هـــذا يمكـــن القـــول بـــإن العقلانيـــة الماديـــة كثيـــراً مـــا تعـــايش مـــع اللاعقلانيـــة الماديـــة و تـــرتبط بهـــا , فالوضـــعية العلميـــة المنطقيـــة هـــي تعبيـــر عـــن العقلانيـــة الماديـــة حيـــث لا يـــؤمن الإنســـان إلا بالتجريـــب والأرقـــام , و لكنهـــا فـــي الوقـــت ذاتـــه تعبـــر عـــن العقلانيـــة الماديـــة , فهـــي لا تشـــتغل بالكليـــات و المنطلقـــات الفلســـفية , و قـــد أشـــرنا الـــى أن النازيـــة ,كمـــا يراهـــا بعـــض المـــؤرخين = هـــي قمـــة العقلانيـــة الماديـــة , و نحـــن نتفـــق معهـــم فـــي هـــذا , ونضـــيف أن هـــذا لا يمنـــع مـــن أن تكـــون قمـــة الاعقلانيـــة الماديـــة أيضـــا , فهـــي تعبيـــر عـــن تبلـــوُر نزعـــة تجريبيـــة محضـــة,و تـــرفض الكليـــات الإنســـانية والعقليـــة و أي شـــكل ن أشـــكال الميتافيزيقـــا , وتلتصـــق تمامـــاً بحركـــة المـــادة و عـــالم الحـــواس و لعـــل الفلســـفة العلمانيـــة الشـــاملة الأساســـية ,أي الداروينيـــة الإجتماعيـــة , هـــي تعبيـــر عـــن هـــذا التعـــايش و الترابط بين العقلانية و اللاعقلانية.

_المرجعيـــــــة النهائيـــــــة : المتجـــــــاوزة و الكامنـــــــة

قبـــل أن ننهـــي هـــذا الفصـــل قـــد يكـــون مـــن المفيـــد أن نعـــرف مصـــطلحين

ستكرران في هذه الدراسة:

الأول مصطلح المرجعية المتجاوزة في مقابل المرجعية الكامنة.

و المرجعية هي الفكرة الجوهرية التي تشكل أساس كل الأفكار في نموذج و الركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها (فهي ميتافيزيقا النموذج ,) و المبدأ الواحد الذي تُرد إليه تلك الأشياء و تُنسب إليه ولا يُرد هو أو ينسب إليها , و من هنا يمكن القول بأن المرجعية هي المطلق المكتفي بذاته و الذي يتجاوز كل الأفراد و الأشياء و الظواهر , وهو الذي يمنح العالم تماسكه و نظامه و معناه و يحدد حلاله و حرامه , و عادة ما نتحدث عن المرجعية النهائية باعتبار أنها أعلى مستويات التجريد , تتجاوز كل شيء و لا يتجاوزها شيء , و يمكننا الحديث عن مرجعيتين: مرجعية نهائية متجاوزة ومرجعية نهائية كامنة,

_1المرجعية النهائية المتجاوزة

المرجعية النهائية يمكن أن كون نقطة خارج عالم الطبيعة مجاوزة لها و هي ما نسيمها المرجعية المتجاوزة (للطبيعة و التاريخ و الإنسان) و هذه النقطة المرجعية المتجاوزة , في النظم التوحيدية هي الإله الواحد

المنــزّه ع الطبيعــة و التــاريخ , الــذي يحركهمــا و لا يحــل فيهمــا , ووجــوده هــو ضــمان أن المســافة التــي تفصــل الإنســان عــن الطبيعــة فلــن تُختــزل و لــن تُلغــى , فالإنســان قــد خلقــه الله و نفــخ فيــه مــن روحــه ,و كرمــه,و اســتأمنه علــى العــالم , و اســتخلفه فيــه , أي أن الإنســان أصــبح مركــز الكــون بعــد أن حُمــل عــبء الأمانــة و الاســتخلاف,

كــل هــذا يعنــي أن الإنســان يحــوي داخلــه بشــكل مطلــق الرغبــة فــي التجــاوز و رفــض الــذوبان فــي الطبيعــة , و لــذا فهــو بظــل مقولــة مســتقلة داخــل النظــام الطبيعــي .كمــا أنــه يعنــي أن إنســانية الإنســان وجــوهره الإنســاني مــرتبط تمــام الارتبــاط بالعنصــر الربــاني فيــه ,ومــع هــذا فبإمكــان الــنظم الإنســانية الهيومانيــة) التــي لا تعتــرف بالضــرورة بوجــود الإلــه (أن تجعــل الإنســان مركــز الكــون المســتقل القــادر علــى تجــاوزه , و مــن ثــم تصــبح لــه أسبقية على الطبيعة/ المادة .

2-المرجعيـــــــــــــــة النهائيـــــــــــــــة الكامنـــــــــــــــة

يمكـن أن تكـون المرجعيـة النهائيـة الكامنـة في العـالم) الطبيعـة أو الإنسـان , (ومـن هنـا تسـميتنا لهـا بالمرجعيـة الكامنـة , و فـي إطـار المرجعيـة الكامنـة يُنظـر للعـالم باعتبـار أنـه يحـوي جاخلـه مـا يكفـي لتفسـيره دون حاجـة إلـى اللجـوء إلـى أي شـيء خـارج النظـام الطبيعـي , و لـذا , لابـد ان تسـيطر الواحديـة , وإن ظهـرت ثنائيـات فهـي مؤقتـة يـتم تصـفيتها فـي نهايـة الأمـر وفـي التحليـل الأخيـر , ففـي إطـار المرجعيـة الكامنـة لا يوجـد سـوى جـوهر واحـد فـي الكـون , مـادة واحـدة يتكـون منهـا كـل شـيء بمـا فـي ذلـك المركـز الكـامن ذاتـه) ومـن هنـا إشـارتنا أحيانـاً إلـى المرجعيـة الكامنـة الماديـة بأنهـا المرجعيـة النهائيـة الكامنـة أو المرجعيـة الواحديـة الماديـة (و نحـن نـذهب إلـى أن كـل الـنظم الماديـة تـدور فـي إطـار المرجعيـة الكامنـة , ومـن هنـا إشـارتنا إلـى الماديـة باعتبارهـا وحـدة الوجـود الماديـة,

و فـي إطـار المرجعيـة الماديـة الكامنـة , فـإن الإنسـان كـائن طبيعـي ,و لـيس مقولـة مسـتقلة داخـل النظـام الطبيعـي , و إنمـا هـو مسـتوعب تمامـاً فيـه ,و يسـقط تمامـاً فـي قضـية الصـيرورة , فتسـقط المرجعيـة الإنسـانية و تصـبح الطبيعـة/ الماديـة هـي المرجعيـــــة الوحيـــــدة النهائيـــــة,

و يـرتبط بهـذا التعريـف تعريفنـا لوحـدة الوجـود) الروحيـة و الماديـة , (و وحـدة الوجـود فـي تصـورنا تعنـي القـول بـأن مركـز العـالم (المبـدأ الواحـد) حـالّ و كـامن فيـه ,و هـو يبتـدي فـي صـيغتين مختلفتـين ظـاهراً , همـا فـي واقـع الأمـر صـيغة واحـدة بـــــرغم اخـــــتلاف التســـــميات التـــــي تطلـــــق عليـــــه:

أ- فـي المنظومـات الحلوليـة الكمونيـة الروحيـة) وحـدة الوجـود الروحيـة (يُسـمى المبـدأ الواحـد الإلـه , ولكنـه إلـه يحـلّ فـي مخلوقاتـه و يمتـزج ثـمّ يتوحـد معهـا و يـذوب فيهـا تمامـاً بحيـث لا يصـير لـه وجـود دونهـا و لا يصـير لهـا وجـود دونـه حلوليـة شـحوب الإلـه , فهـو إلـه اسـماً و لكنـه هـو الطبيعـة / المـادة فعـلاً , و قـد

طور هيجل هذه الصياغة فتحدث عن الروح المطلق أو روح التاريخ فيبد وكأنه يتحدث عن أمور روحية مثالية , و لكنه في واقع الأمر يتحدث عن عناصر مادية محسوسة,

ب- المنظومات الحلولية الكمونية المادية) وحدة الوجود المادية , (يتم الاستغناء تماماً عن أية لغة روحية أو مثالية و يُسمى المبدأ الواحد قوانين الطبيعة أو القوانين العلمية أو القوانين المادية أو قانون الحركة) ولذا فنحن نسميها حلولية من دون إله , (هذا القانون هو قانون شامل يمكن تفسير كل الظواهر – ومن بينها الظاهرة الإنسانية – من خلاله.

و برغم الاختلاف الظاهر بين وحدة الوجود الروحية و وحدة الوجود المادية فإن بنيتهما واحدة , يتسمان بالواحدية و بمحو الثنائيات و المقدرة على التجاوز..

–الوحدوية المادية

أما المصطلح الثاني الذي يشكل سيتكرر في هذه الدراسة فهو الوحدوية المادية وهي توحد الانسان بالطبيعة بحيث يرد كله الى مبدأ واحد كامن في الكون ومن ثم فإن عالمنا المادي لا يشير إلي أي شيئ خارجه فهو عالم لا ثغرات فيه ولا مساحات ولا انقطاع ولا غائيات تم إلغاء كل الثنائيات داخله وضمنها ثنائية الخالق والمخلوق والانسان والطبيعة والخير والشر والأعلى والأدنى وتم تطهيره تماما من المطلقات والقيم وتم اختزاله كله الى مستوى القانون الطبيعي/المادي/أو الطبيعة / المادة) المطلق العلماني النهائي (وفي مثل هذا العالم الواحدي الأملس يوجد مجال للوهم القائل بأن الانسان يحوي من الأسرار ما لا يمكن الوصول إليه وأن ثمة جوانب فيه غير خاضعة لقوانين الحركة المادية بل ويمكن تطبيق الصيغ الكمية والاجراءات العقلانية الأداتية على الانسان كما يمكن إدارة العالم بأسره حسب هذه الصيغ ويتحول العالم إلى واقع حسي مادي نسبي خاضع للقوانين العامة للحركة) ومن ثم قابل للقياس

والـتحكم الهندسـي والتنمـيط) وإلـى مـادة اسـتعمالية يمكـن توظيفهـا وحوسـلتها(

فـي هـذا الإطـار تصـبح المعرفـة مسـألة تسـتند إلـى الحـواس وحسـب، ويصـبح العـالم الطبيعـي هـو المصـدر الوحيـد أو الأساسـي للمنظومـات المعرفيـة والأخلاقيـة وتـرد الأخـلاق إلـى الاعتبـارات الماديـة) الاقتصـادية والاجتماعيـة والسياسـية (وتنفصـل الحقـائق الماديـة تمامـا عـن القيمـة ويظهـر العلـم المنفصـل عـن الأخـلاق وعـن الغائيـات الإنسـانية والدينيـة والعاطفيـة والأخلاقيـة وتصـبح الحقـائق الماديـة) الصـلبة أو السـائلة (المتغيـرة هـي وحـدها المرجعيـة المعرفيـة والأخلاقيـة المقبولـة وتصـبح سـائر الأمـور) المعرفيـة والأخلاقيـة (نسـبية صـالحة للتوظيـف والاسـتخدام بـل إن هـذه الرؤيـة الواحدويـة الماديـة فـي مراحلهـا المتقدمـة بإنكارهـا أي ثبـات ينتهـي بهـا الأمـر إلـى إنكـار وجـود الماهيـات والجـوهر، بـل والطبيعـة البشـرية نفسـها ، باعتبارهـا جميعـا اشـكال مـن الثبـات والميتافيزيقـا عـالم العلمانيـة الشـاملة والترشـيد في الإطار المادي.

الفصـــل الثـــاني : إشـــكالية الطبيعـــي و الإنســـاني

النمـوذج التفسـيري المـادي قـد أحـرز شـيوعا غيـر مسـبوق لأسـباب بيناهـا فـي الفصـل السـابق، لكـن هـذا النمـوذج غيـر قـادر علـى التعامـل مـع الإنسـان بـنفس الكفـاءة التـي يتسـم بهـا حـين يتعامـل مـع الأشـياء.

الفـــرق بـــين الظـــاهرة الطبيعيـــة و الظـــاهرة الإنســـانية

ثمـة ثنائيـة فضفاضـة تسـم الوجـود الإنسـاني (الخـالق-المخلـوق، الإنسـان-الطبيعـة). و ثنائيـة الإنسـان-الطبيعـة هـي أهـم هـذه الثنائيـات. و قـد عبـرت عـن نفسـها فـي الجـدل المثـار فـي العلـوم الإنسـانية منـذ ظهورهـا فـي القـرن التاسـع عشـر. و هـل هنـاك علـم طبيعـي مختلـف عـن العلـوم

الإنســــانية أم أن هنــــاك وحـــدة (أي واحديـــة) للعلـــوم؟
يطلـق مصـطلح العلـم الطبيعـي علـى كـل دراسـة تتنـاول معطيـات الواقـع المـادي بكلياتـه و جزئياتـه. و وسـيلة هـذه الدراسـة هـي مـنهج الملاحظـة المباشـرة و التجربـة المتكـررة و المتنوعـة. و الدراسـة و عمليـات التجريـب كـذلك تـتم بهـدف التفسـير مـن خـلال التوصـل إلـى تعميمـات و قـوانين تحقـق الانتقـال مـن الخـاص إلـى العلـم، و تكشـف عـن العلاقـات المطـردة الثابتـة بـين الظـواهر. و هـذه القـوانين يـتم التعبيـر عنهـا عـن طريـق تحويـل صـفات الكيـف (التـي لا تقـاس) إلـى صـفات كـم بحيـث يـتم التعبيـر عنهـا برمـوز رياضـية. و تتميـز قـوانين العلـوم الطبيعيـة بأنهـا دقيقـة و عامـة تتخطـى الزمـان و المكـان، و هـي حتميـة (و لكنهـا، بعـد اهتـزاز الحتميـة، أصـبحت احتماليـة ترجيحيـة : ترجيحيـة تقـارب اليقـين، و تظـل صـالحة للاسـتعمال حتـى يثبـت بطلانهـا)
و يـذهب الـبعض إلـى أن نمـوذج العلـوم الطبيعيـة لا بـد أن يطبـق فـي كـل العلـوم الأخـرى، بمـا فـي ذلـك العلـوم الاجتماعيـة و الإنسـانية. و قـد لاحـظ كثيـر مـن العلمـاء فـي الشـرق و الغـرب خلـل مثـل هـذه المحاولـة، نـذكر مـنهم د. حامـد عمـار، د. توفيـق الطويـل، د. حسـن السـاعاتي، د. الجـوهري الـذين بينـوا الاختلافـات بـين الظـاهرة الإنسـانية و الظـاهرة الطبيعيـة، و نوجزهـا فيمـا يلـي:

1.أ) الظـاهرة الطبيعيـة مكونـة مـن عـدد محـدود نسـبيا مـن العناصـر التـي تتميـز بـبعض الخصـائص البسـيطة، و هـذا يعنـي أنـه يمكـن تفتيتهـا إلـى الأجـزاء المكونـة لهـا. كمـا أن الظـاهرة الطبيعيـة توجـد داخـل شـبكة مـن العلاقـات الواضـحة و البسـيطة نوعـا، و التـي يمكـن رصـدها.
1.ب) الظـاهرة الإنسـانية مكونـة مـن عـدد غيـر محـدود تقريبـا مـن العناصـر

التي تتميز بقدر عال من التركيب، و يستحيل تفتيتها، لأن العناصر مترابطة بشكل غير مفهوم لنا. و حينما يفصل الجزء عن الكل، فإن الكل يتغير تماما و يفقد الجزء معناه. و الظاهرة الإنسانية توجد داخل شبكة من علاقات متشابكة متداخلة بعضها غير ظاهر و لا يمكن ملاحظته.

2.أ) تنشأ الظواهر الطبيعية عن علة أو علل يسهل تحديدها و حصرها، و يسهل بالتالي تحديد أثر كل علة في حدوثها و تحديد هذا الأثر تحديدا رياضيا.

2.ب) الظاهرة الإنسانية يصعب تحديد و حصر كل أسبابها، و قد تعرف بعض الأسباب لا كلها، و لكن الأسباب تكون في العادة متداخلة متشابكة، و لذا يتعذر في كثير من الحالات حصرها و تحديد نصيب كل منها في توجيه الظاهرة التي ندرسها.

3.أ) الظاهرة الطبيعية وحدة متكررة تطرد على غرار واحد و بغير استثناء : إن وجدت الأسباب ظهرت النتيجة. و من ثم، نجد أن التجربة تجرى في حالة الظاهرة الطبيعية على عينة منها ثم يعمم الحكم على أفرادها في الحاضر و الماضي و المستقبل.

3.ب) الظاهرة الإنسانية لا يمكن أن تطرد بدرجة الظاهرة الطبيعية نفسها، لأن كل إنسان حالة متفردة، و لذا نجد أن التعميمات، حتى بعد الوصول إليها، تظل تعميمات قاصرة و محدودة و منفتحة و تتطلب التعديل في أثناء عملية التطبيق من حالة إلى أخرى.

4.أ) الظاهرة الطبيعية ليست لها إرادة حرة و لا وعي و لا ذاكرة و لا ضمير و لا شعور و لا أنساق رمزية تسقطها على الواقع و تدركه من خلالها، فهي خاضعة لقوانين موضوعية (برانية) تحركها.

4.ب) الظاهرة الإنسانية على خلاف هذا، ذلك لأن الإنسان يتسم

بحرية الإرادة التي تتدخل في سير الظواهر الإنسانية، كما أن الإنسان له وعي يسقطه على ما حوله و على ذاته فيؤثر هذا في سلوكه. و الإنسان له ذاكرة تجعله يسقط تجارب الماضي على الحاضر و المستقبل، كما أن نمو هذه الذاكرة يغير من وعيه بواقعه. و ضمير الإنسان يجعله يتصرف أحيانا بشكل غير منطقي (من منظور البقاء و المنفعة المادية) كما أن الأنساق المادية الرمزية للإنسان تجعله يلون الواقع البراني بألوان جوانية.

.5أ) الظواهر الطبيعية ينم مظهرها عن مخبرها، و يدل عليه دلالة تامة بسبب ما بين الظاهر و الباطن من ارتباط عضوي شامل يوحد ما بينهما فيجعل الظاهرة الطبيعية كلا مصمتا تحكمه من الداخل و الخارج قوانين بالغة في الدقة لا يمكنها الفكاك منها، و لهذا تنجح الملاحظة الحسية و الملاحظة العقلية في استيعابها كلها.

.5ب) الظواهر الإنسانية ظاهرها غير باطنها (بسبب فعاليات الضمير و الأحلام و الرموز) و لذا فإن ما يصدق على الظاهر لا يصدق على الباطن، و حتى الآن، لم يتمكن العلم من أن يلاحظ بشكل مباشر التجربة الداخلية للإنسان بعواطفه المكبوتة و أحلامه الممكنة أو المستحيلة.

.6أ) لا يوجد مكون شخصي أو ثقافي أو تراثي في الظاهرة الطبيعية، فهي لا شخصية لها، مجردة من الزمان و المكان تجردها من الوعي و الذاكرة و الإرادة.

.6ب) المكون الشخصي و الثقافي و الذاتي مكون أساسي في بنية الظاهرة الإنسانية. و الثقافة ليست شيئا واحدا و إنما هي ثقافات مختلفة، و كذا الشخصيات الإنسانية.

.7أ) معدل تحول الظاهرة الطبيعية يكاد يكون منعدما (من وجهة نظر

إنسانية)، فهو يتم على مقياس كوني، كما أن ما يلحق بها من تغير يتبع نمط برنامج محدد، و لذا فإن الظواهر الطبيعية في الماضي لا تختلف في أساسياتها عنها في الحاضر، و يمكن دراسة الماضي من خلال دراسة الحاضر.

.7ب) معدل التغير في الظواهر الإنسانية أسرع بكثير و يتم على مقياس تاريخي، و ما يطرأ عليها من تغير قد يتبع أنماطا مسبقة، و لكنه قد ينسلخ عنها. و عالم الدراسات الاجتماعية لا يستطيع أن يرى أو يسمع أو يلمس الظواهر الإنسانية التي وقعت في الماضي، و لذا فهو يدرسها عن طريق تقارير الآخرين الذين يلونون تقاريرهم برؤيتهم، فكأن الواقعة الإنسانية في ذاتها تفقد إلى الأبد فور وقوعها.

.8أ) بعد دراسة الظواهر الطبيعية و الوصول إلى قوانين عامة، يمكن التثبت من وجودها بالرجوع إلى الواقع. و لأن الواقع الطبيعي لا يتغير كثيرا، فإن القانون العام له شرعية كاملة عبر الزمان و المكان.

.8ب) بعد دراسة الظواهر الإنسانية، يصل الإنسان إلى تعميمات. فإن هو حاول تطبيقها على مواقف إنسانية جديدة فإنه سيكتشف أن المواقف الجديدة تحتوي على عناصر جديدة و مكونات خاصة، إذ من غير الممكن أن يحدث في الميادين الاجتماعية ظرفان متعادلان تماما، و متكافئان من جميع النواحي.

.9أ) لا تتأثر الظواهر الطبيعية بالتجارب التي تجرى علينا سلبا أو إيجابا، كما أن القوانين العامة التي يجردها الباحث و النبوءات التي يطلقها لن تؤثر في اتجاهات مثل هذه الظواهر، فهي خاضعة تماما للبرنامج الطبيعي .

.9ب) تتأثر العناصر الإنسانية بالتجربة التي قد تجرى عليها، فالأفراد موضوع البحث يحولون من سلوكهم (عن وعي أو عن غير وعي)

لوجودهم تحت الملاحظة، ففي إمكانهم أن يحاولوا إرضاء صاحب التجربة أو يقوضوا من نتائجه. كما أن البنوءات التي يطلقها الباحث قد تزيد من وعي الفاعل الإنساني و تغير من سلوكه.

10.أ) يمكن للباحث الذي يدرس الظاهرة الطبيعية أن يتجرد إلى حد كبير من أهوائه و مصالحه، لأن استجابته للظاهرة الطبيعية و للقوانين الطبيعية يصعب أن تكون استجابة شخصية أو أيديولوجية أو إنسانية، و لذا يمكن للباحث أن يصل إلى حد كبير الموضوعية.

10.ب) أما الباحث الذي يدرس الظاهرة الإنسانية فلا يمكنه إلا أن يستجيب بعواطفه و كيانه و تحيزاته، و من خلال قيمه الأخلاقية و منظوماته الجمالية و الرمزية، و لذا يصعب عليه التجرد من أهوائه و مصالحه و قيمه التي تعوقه في كثير من الأحيان عن الوصول إلى الموضوعية الصارمة.

و لكل ما تقدم فإن من الممكن إجراء التجارب المباشرة المنضبطة المتكررة على العناصر الطبيعية، و يمكن قياسها بمقاييس كمية رياضية، فهي تخلو من الاستثناءات و التركيب و الخصوصيات، و يمكن التوصل إلى قوانين عامة تتسم بالدقة تنطبق على الظاهرة في كليتها و في جوانيتها و برانيتها. أما الظاهرة الإنسانية، فلا يمكن إجراء التجارب المباشرة المنضبطة عليها و يستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة إذ لا تخلو من الاستثناءات و التركيب و الخصوصيات، و لذا لا يمكن التوصل إلى قوانين عامة (و إن تم التوصل إلى قوانين فلابد أن تعوزها الدقة و الضبط). و هناك عدد كبير من الكتاب الغربيين من أوائلهم فيكو، و من أهمهم كانط و ديلتاي و ريكرت، ينطلقون من محاولة التمييز بين الإنسان و الطبيعة. و لكن غالبية المفكرين الغربيين

يـــدورون فـــي إطـــار الواحديـــة الماديـــة (أو الواحديـــة المثاليـــة) و يحـــاولون القضـــاء علـــى هـــذه الثنائيـــة تمامـــا و إلغـــاء الحيـــز الإنســـاني و بالتـــالي يـــدافعون عن وحدة العلوم

-إشكالية الإنساني والطبيعي في العالم العربي

ثمة وعي عميق بإشكالية التمييز بين الإنساني والطبيعي فى الأدبيات العربية ، فالمفكر الماركسي د. فؤاد مرسي يدعو بوضوح فى كتاب (إشكالية العلوم الاجتماعية) فى دراسة له بعنوان)) المنهج بين الوحدة والتعدد ((إلى عدم التمييز بين الإنسان والطبيعة ، فيعرف الإنسان بأنه ((قوة من قوى الطبيعة ؛ إنسان طبيعى / مادى يتكيف معها ، ولكنه فى الوقت نفسه يعيد صيغتها . وهذه هى الإشكالية الكبرى التى تواجه الماديين ودعاة العلمانية الشاملة : هل الإنسان الطبيعى / المادى يذعن للطبيعة أم أنه يهيمن عليها ؟ وتتضح الإشكالية فى كتابات د . فؤاد مرسى نفسه ، فهو يؤكد أن الإنسان سيزداد بعداً عن الحيوان ، ولكنه يعود ويعرف الإنسان فى اطار طبيعى مادى ويجد أن ((الاقتصاد هو مجال رئيسى للعلاقة المتبادلة بين الطبيعة والمجتمع ((فبعد أن ابتعد)) الإنسان عن الحيوان، وهو ما يعنى ابتعادة عن الطبيعة وتفوقه عليها فإنه يعود فيدخل فى علاقة ((تبادلية)) تفترض المساواة الكاملة . وتظهر هذه التبادلية بشكل اوضح حين يوحد د. فؤاد مرسي بين الطبيعة والمادة ، فيقول : ((لهذا اصبح العالم كله ، طبيعياً وأجتماعياً ، علماً ذا طابع أجتماعى)). واصبح تقدم البشرية حالياً رهناً إلى حد مبير بالتداخل الأكبر والتفاعل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية)) . والتداخل والتفاعل قد يعنى ثنائية (وهو ما يرفضه الفكر المادى) ، وقد يعنى مساواةً وتوحداً ،

وهو على الأرجح ، ولذا نجده فى السطر التالى يقول : ((إن كل محاولة للفصل بين المجتمع والطبيعة تصبح محاولة وهمية . فوجود المجتمع هو جانب من وجود الطبيعة)). ولكنه يعود للثنائية فيقول) إن وحدة الثورتين التكنولوجية والاجتماعية كفيلة فى المستقبل أن تجعل من البشر لأول مرة فى التاريخ ، السادة الحقيقيين للطبيعة)). ثم يتحدث عن احتدام الصراع بين الطبيعة والإنسان وعن (الإنسان الشامل الذى يختزن فى نفسه قدراً لا مثيل له من المعرفة بالكون كله)). ولكن ما النتيجة النهائية لهذا التأرجح الكوميدى بين الأندماج العضوى فى الطبيعة والإذعان لها من جهة، والانفصال عنها وتملكها والهيمنة عليها من جهة أخرى ؟ يختتم الدكتور مرسى مقالة بقوله ((هناك يتوحد الإنسان تماماً مع المجتمع والطبيعة)) أى إن الحالة الجنينية تنتصر تماماً . وعلى كل فإن عنوان هذا الجزء من المقال هو ((نحو وحدة الكون)) وليس : نحو مركزية الإنسان فى الكون أي هيمنته عليه.

ولكن العدد الأكبر من علمائنا الأجلاء كانوا من المدافعين عن الإنسان ضد المادية والطبيعية . فعلى سبيل المثال ، يقول الدكتور حامد عمار فى كتابه من) همومنا التربوية والثقافية : (

))إن منهج التفكير العلمى الذى ارسته العلوم الطبيعية قد شاع باعتباره المنهج الوحيد فى الوصول إلى المعرفة الصحيحة . واصطنعت العلوم

الأجتماعيــة الإنســانية هــذا المــنهج فــى دراســتها وبحوثهــا . بيــد أن معظمهــا قــد توقــف عنــد المرحلــة النيوتونيــه مــن منــاهج البحــث العلمــى الطبيعــى، واختــزال المــنهج إلــى تجزئــة الظــواهر وتفكيــك أجزائهــا ، ومحاولــة فــرض الفــروض المرتبطــة بــذلك الجــزء أو ذاك ، وإخضــاع الفــروض حولــه للقيــاس والأختبــار . وجــرى العــرف عنــد الكثيــرين علــى اعتبــار النتــائج علميــة ثابتــة غيــــــر قابلــــــــة للتعــــــــديل.

وأطلــق علــى هــذه التجزئــة للظــواهر وإخضــاعها للدراســة الميدانيــة العينيــة مــا عــرف بأســم المــنهج الأمبيريقــى أو الوصــفى ، محلــلاً للظــاهرة كمــا توجــد فــى موقعهــا الزمــانى والمكــانى ...ودون تصــور لأنــواع العلاقــات وديناميإتهــا فــى الظــاهرة المدروســة مــع ســياقها الثقــافى الاجتمــاعى. ومــن ثــم فقــدت الدراســة منظوماتهــا العضــوية الديناميــة فــى إطــار الزمــان والمكــان والبعــد التــــاريخى لنشــــــأتها وتطورهــــــا وتوظيفهــــــا الاجتمــــــاعي. واســتقر فــى اذهــان كثيــر مــن البــاحثين الاجتمــاعيين أن نتــائجهم علميــة لا يرقــى إليهــا التصــحيح ... واصــبح مــن المســلمات فــى الرســائل الجامعيــة فــى العلــوم الإنســانية ألا تعــاد دراســة الموضــوع ؛ لأن مــا ســبق مــن بحــوث قــد اســتقر ، باعتبــاره حقــائق علميــة . ثــم أن البحــوث تــدعى الموضــوعية العلميــة المطلقــة ، وأن لا شــأن لــذات الباحــث أو أيدولوجيتــه أو تحيزاتــه أى تــدخل فــى مختلــف مراحــل البحــث وتفســيراته ، وأنمــا جــاءت النتــائج علميــــة مــــن خــــلال معطيــــات الواقــــع العينــــى.

ومــع هــذا الأختــزال الأمبريقــى الوضــعى الــوظيفى للمــنهج العلمــى الطبيعــى

فــى آفاقــه الرحبــة والمتجــددة ، فــإن ثمــة منــاهج أخــرى للمعرفــة العلميــة تبــدأ مــن الملاحظــة والمشــاركة الملاحظــة (بكســر الحــاء) أمتــداداً إلــى الحـــــــس التــــــــــاريخى والــــــــــوعى الــــــــــــذاتي.

والبصــيرة والحــدس ، والفهــم الكيفــى فــى الســياق الثقــافي الاجتمــاعى التــاريخى والخبــرة الإنســانية . ولــيس بالضــرورة أن تلجــأ تلــك المنــاهج إلــى البيانــات الرقميــة والقيــاس ؛ إذ إن تلــك الأدوات كثيــراً مــا تشــوه المعرفــة بعــالم الــوعى والخبــرة والفهــم النــوعى للواقــع وإمكانــات المســتقبل ، فضــلاً عـــن قصـــورها عـــن فهـــم القـــيم وديناميـــات الـــدوافع والأخـــلاق.

إن هــذه الأســاليب والأدوات المعرفيــة تصــبح علميــة مــا دامــت تقــوم علــى ملاحظــة منتظمــة أو خبــرة مطــردة ، ومادامــت بياناتهــا وشــواهدها منطقيــة ومتســقة فــى نمــوذج مفــاهيمى . وتتــدعم علميتهــا مــع اختبارهــا وتقييمهــا علــى ارض الواقــع ومــن خــلال الممارســة ، وقــد تتــدعم فيمــا بعــد بجوانــب كميــة للتوضــيح والتعزيــز . ومــن هنــا فــإن علــى العلــوم الاجتماعيــة الإنســانية ومجالاتهــا فيمــا يســتقر بهــا مــن الشــعور والــوعى ومــن اللاشــعور والحــدس دون ان تُــنقص عوامــل الذاتيــة مــن جــدوى المعــارف المتولــدة مــن مثــل هــذه المنــاهج . وفــى قضــايا التربيــة والاجتمــاع وعلــم الــنفس مســاحات عريضــة لجــدوى توظيــف تلــك المنــاهج بمــا فيهــا مــن ضــبط وتنظــيم وقابليــة للمراجعـــــــــة والتفنيـــــــــد والتطـــــــــوير.((

وفــى كتــاب) إشــكالية العلــوم الاجتماعيــة (يبــين الــدكتور حســن الســاعاتى فــى مقــال بعنــوان ((إشــكالية المــنهج فــى العلــوم الاجتماعيــة)) :أن علمــاء الاجتمــاع الــذين تــأثروا بمنــاهج اللدراســة والعلــوم الطبيعيــة

يـــذهبون إلـــى ((أن العلـــوم الأجتماعيـــة ، وعلـــى رأســـها علـــم الاجتمـــاع ، لا تكـــون علومـــاً بمعنـــى الكلمـــة ، أى دقيقـــة ومظبوطـــه النتـــائج ، إلاإذا ترســـم علماءهـــا خطـــا البـــاحثين فـــى العلـــوم الطبيعيـــة التـــى يرتكـــز محـــور التفكيـــر فـــى ظواهرهـــا علـــى التجريـــب ، أي مـــا يجرونـــه عليهـــا مـــن تغييـــر مقصـــود وبطريقـــة مرســـومة مـــن قبـــل ، مســـتهدفين أهـــدافاً معينـــة يســـتنتجون منهـــا الحقـــائق ، إذا تكـــرر اســـتقراؤها مـــن تجـــارب مماثلـــة صـــارت نظريـــات علميـــة أو قـــوانين ثابتـــة .

وقـــد فـــات هـــؤلاء العلمـــاء الغربيـــون ، وغيـــرهم ممـــن قلـــدوهم فـــي مســـارهم الفكـــري مـــن دون رويـــة واستبصـــار ، أن الظـــواهر الاجتماعيـــة تختلـــف تمامـــاً عـــن الظـــواهر الطبيعيـــة التـــى لا عقـــل و لا إرادة لعناصـــرها، والتـــى يـــنم مظهرهـــا عـــن مخبرهـــا ، لأنهـــا فـــى رأينـــا أحاديـــة النســـق ، تحكمهـــا كـــلاً أو جـــزءاً قـــوانين ونظريـــات واحـــدة لا تتبـــدل . ولـــذلك نجـــد أن كـــلاً مـــن الملاحظـــة الحســـية ، أى المشـــاهدة ، والملاحظـــة العقليـــة . أى التأمـــل والأستبصـــار ، وجميـــع خطـــوات التجريـــب التـــى تُجـــرى عليهـــا ، بوصـــفها ظـــواهر طبيعيـــة أحاديـــة النســـق ، تســـتوعبها كلهـــا فـــى جميـــع مظاهرهـــا ، لأن ظاهرهـــا لا يختلـــف عـــن باطنهـــا فـــي شـــيء ، حتـــى أنـــه ليـــدل عليـــه دلالـــة تامـــة ، لمـــا بـــين الظـــاهر والبـــاطن مـــن ارتبـــاط عضـــوى شـــامل متكامـــل .

أمـــا الظـــواهر الاجتماعيـــة فتختلـــف عـــن الظـــواهر الطبيعيـــة فـــي أنهـــا ، بوصـــفها ظـــواهر عنصـــرها الأساســـى الإنســـان الأجتمـــاعى العاقـــل ذو الإرادة ، الـــذى يعـــيش مُعاشـــراً لغيـــره مـــن البشـــر ومرتبطـــاً بهـــم بشـــتى العلاقـــات الأجتماعيـــة ،

نقول تختلف في أنها ثنائية النسق . فكما أن للإنسان جوانية وربانية ، فهي بالمثل ذات نسقين، أحدهما جوانى أي باطن، والآخر براني أى ظاهر . وما دامت كذلك ، فإن البحث فيها ينقسم إلى قسمين : أحدهما يُعنى بالنسق البراني ، أى بما يتبدى من الظاهرة الاجتماعية للحواس فتدركة وتتعقله ، والآخر يُركَ◌ًز على النسق الجواني الخفى منها ، الذى يُعد غرفة عمليات للنسق البراني ، ليستجلبه ويدركه ويتعقله.((

- الشـــــــــرح والتفســــــــــير

انطلاقــا مــن ثنائيــة الإنســان والطبيعــة يــتم التمييــز بــين الشــرح والتفســير) بالألمانيــة :فرشــتيهن (verstehenوكلمــة يشــرح أصــبحت تعنــي بشــكل كامــل أو يزيــل اللــبس تمامــا . بــل وأصــبحت لهــا أبعــاد تفكيكيــة، فهــي تعنــي تعريــف أســباب الظــاهرة وردهــا إلــى مبــدأ عــام واحــد أو عــدة مبــادئ .كمــا أنهــا قــد تعنــي يفضــح أو ينــزع الســر عــن. وهــذه الأبعــاد ليســت واضــحة فــي اللغــة العربيــة بالقــدر الكــافي ، إلا أنهــا أكثــر وضــوحا فــي اللغــة الانجليزيــة فكلمــة يشــرح باللغــة الانجليزيــة هــي اكســبلين explain مــن الفعــل اللاتينــي اكســبلاناري explanare بمعنــي يُســطح الشــئ أو يســويه أو يجعلــه مســتويا) كلمــة بلــين planeالانجليزيــة تعنــي الســطح المســتوي (هــذا علــى عكــس فعــل انتربريــت) مــن الفعــل اللاتينــي انتربريتــاري interpretari وهــو يعنــي يفــاوض (ففعــل انتربريــت يعنــي يبــرر أو يقــوم بــدور المتــرجم ومــن الواضــح أن كلمــة يشــرح تــدور فــي إطــار المرجعيــة الموضوعية:يســطح ويســوي حتــى يســتوي مــع معياريــة برانيــة أمــا كلمــة يُفسّــر فهــي لا تنفــي الأبعــاد الذاتيــة الاجتهاديــة لعمليــة الإدراك. وهــذا التــدخل بــين التفســير) بمعنــى الاجتهــاد فــي فهــم الظــاهرة وجعلهــا مفهومــة إلــى حــد مــا مــن خــلال التعــاطف معهــا وفهمهــا أو تفهمهــا مــن الــداخل (والشــرح بمعنــى إدخــال الظــاهرة فــي شــبكة الســببية الصــلبة المطلقــة والقــوانين الطبيعيــة وكشــف العلاقــة الموضــوعية بــين الســبب والنتيجــة) يعــود إلــى أن العلــوم الطبيعيــة والرياضــة بنماذجهــا العقلانيــة الموضــوعية الماديــة تلقــي بظلالهــا الكثيفــة علــى العلــوم الانســانية فالاســتنباط) العقلانــي (هــو مــنهج العلــوم الرياضــية والاســتقراء (التجريبــي) هــو.

منهج العلوم الطبيعية وكلاهما يحاول أن يصل إلى درجة عالية من الدقة والعمومية في نتائجه ومن ثم يحاول بعض علماء الدراسات الانسانية تبني المناهج السائدة في العلوم الطبيعية والرياضية) العلوم الدقيقة (ويحاولون تفسير الظواهر الاجتماعية والانسانية تمام مثلما تفسر الظواهر الطبيعية بطريقة كمي فيتبنون نماذج رصد موضوعية عقلانية مادية ،تُسقط الأبعاد الجوانية والخاصة والكيفية للظاهرة الإنسانية ،وتهمل الدوافع والوعي وتُزال كل المسافات والثغرات والثنائيات والخصوصيات ،حتى نصل إلى مايُتصور أنه التفسير الموضوعي الكامل أو شبه الكامل للظاهرة ،أي إن دراسة سلوك الإنسان لايختلف عن دراسة سلوك اليرقات فكلاهما يُدرس من خلال سلوكه البراني وحركته الخاصة (ومع هذا ينبغي الاشارة إلى ان العلوم الطبيعية نفسها قد انسلخت عن هذه الرؤية وأصبحت أكثر احتمالية في رؤيتها أنها أخذت بالتدريج تكون لنفسها عالما خاصا بها مؤلفا من كيانات عقلية ورياضية لاتستطيع أن تجد بها وجودا في عالم الظواهر،ويبدو أن الفرض العلمي ، الذي كان يمثل الخطوة الثانية التي تلي خطوة الملاحظة والتجربة والذي كان يشير إلى إلى مدركات حسية أصبح في المنهج العلمي المعاصر فرضا صوريا لايشير إلى مدركات حسية ويأتي سابقا على الملاحظة والتجربة لكن الفرض العلمي لم يعد تعميقا لوقائع تجريبية –كما كان شائعا في الماضي_ وإنما هو نتاج العبقرية العلمية الخلاقة التي تأتي به بأي طريقة أو بأي منهج , وما يهم في الفرض العلمي مدى مقدرته على أن تجعل هذا العالم مفهوما ومعقولا أي أن الحاجة إلى حقائق صلبة أو سببي صلبة لم تعد موجودة. (

وفـــي العـــالم الغربـــي ،اكتشـــف كثيـــر مـــن العلمـــاء ســـذاجة ،بـــل وتفاهـــة ،الرؤيـــة التجريبيـــة والوضـــعية) الموضـــوعية /الماديـــة (التـــي تصـــر علـــى الحقـــائق الصـــلبة وعلـــى الســـببية الصـــلبة والمطلقـــة، والتـــي ذهبـــت إلـــى أن قـــوانين التـــاريخ والمجتمـــع الإنســـانيين تشـــبه قـــوانين الطبيعـــة) بـــالمعنى الســـاذج لفكـــرة القـــانون العلمـــي (وحاولـــت اكتشـــاف هـــذه القـــوانين وصـــياغتها بطريقـــة "علميـــة" دقيقـــة كمية،واصـــر هـــؤلاء العلمـــاء الـــذين رفضـــوا مثـــل هـــذه الرؤيـــة الســـاذجة علـــى ضـــرورة التمييـــز بـــين العلـــوم الإنســـانية والعلـــوم الطبيعيـــة وعلـــى ضـــرورة رفـــض فكرةوحـــدة العلـــوم وواحـــديتها , ومـــن مظـــاهر هـــذه الثـــورة محاولـــة التمييـــز بـــين الشـرح مـن جهـة والفهـم) بمعنـى الـتفهم والتفسـير الاجتهـادي (مـن جهـة أخـرى .

و قـــد بـــدأ إســـتخدام الفعـــل الإلمـــاني فرشـــتين (Verstehen) بمعنـــى يفهـــم أو يـــتفهم فـــي مقابـــل إركليـــرين (Erklaren) بمعنـــى يشـــرح مـــن خـــلال ملاحظـــة الحـــوادث وربطهـــا بـــالحوادث الأخـــرى حســـب قـــوانين الطبيعيـــة, و ذلـــك لوصـــف عمليـــة فهـــم الســـلوك الإنســـاني المركـــب مـــن خـــلال التعـــاطف و إدراك الـــدوافع الإنســـانية) فـي مقابـل شـرح الأسـباب .(و قـد اسـتخدام هـذا المصـــطلح كـــلٌّ مـــن فلهلـــم ديلتـــاي, وجـــورج زيميـــل , و كـــارل ياســـبرز , و مـــاكس فـــايبر و آخـــرون, و قـــال ياســـبرز)) : إن الحيـــاة النفســـية الإنســـانية لا يمكـــن دراســـتها مـــن الخـــارج , كمـــا أن الحقـــائق الطبيعيـــة لا يمكـــن دراســـتها مـــن الـــداخل , الأولـــى يمكـــن فهمهـــا مـــن خـــلال النفـــاذ النفســـي , أمـــا الثانيـــة فـــيمكن شـــرحها مـــــــن خـــــــلال دراســـــــة العلاقـــــــة الموضـــــــوعية الماديـــــــة.((

و قـارن ياسـبرز بـين دراسـة حجـر يسـقط مـن عـل (مـن جهـة) و دراسـة علاقـة تحـارب الإنسـان فـي طفولتـه بـبعض الأمـراض النفسـية فـي شـبابه و شيخوخته) مـن جهـة أخـرى , (فـالأول لا يمكـن أن نـراه إلا بشـكل برانـي) في إطـار قـانون الجاذبيـة , (أمـا الثـاني فيتطلـب عمليـات فكريـة و عقليـة أكثـر تركيبـــــــــــاً.

و لكـن المصـطلح أساسـاً ارتـبط باسـم مـاكس فيبـر , فقـد بـين فيبـر الفـرق بـين الرصـد الموضـوعي المتلقـي المـادي و علميـات التفسـير الإجتهاديـة حـين قـال :إن دراسـة حظيـرة دجـاج أمـر جـدٌّ مختلـف عـن دراسـة المجتمـع الإنسـاني فعلـم اجتمـاع الـدجاج لـن يـدرس سـوى أنمـاط سـلوكية متكـررة مـن الخـارج يمكـن فهمهـا فـي إطـار المثيـر المـادي و الاسـتجابة السـلوكية, و نحـن لا نعـرف شـيئاً عـن العـالم الجـواني للـدجاج و عواطفـه و افكـاره و تأملاتـه إن كـان هنـاك مثـل هـذا العـالم , أمـا فـي حالـة المجتمـع الإنسـاني , فـنحن مـزودون بـدقر كبيـر مـن المعرفـة عـن العـالم الجـواني للإنسـان) نتوصـل اليـه مـن خـلال مغرقتنـا لـذواتنا و مـن خـلال ألفتنـا للطبيعـة البشـرية(وعـن الـدوافع الداخليـة المركبـة و عـلام المعنـى الـذي ينبـع منـه السـلوك الإنسـاني.

و لـذا إذا كـان مـن الممكـن شـرح سـلوك الـدجاج فـي إطـار شـبكة السـببية الصـلبة المطلقـة , ومـن خـلال الملاحظـة البرانيـة المباشـرة , فلـن يكـون هـذا كافيـاً بالنسـبة للبشـر , و المحاولـة الوضـعية السـلوكية لوصـف عـالم الإنسـان مـن خـلال سـلوكه البرانـي محكـوم عليهـا بالفشـل و محكـوم عليهـا بـإن تظـل سـطحية تافهـة , فهـي بإصـرارها علـى ضـرورة الشـرح البرانـي الموضـوعي ستسـتبعد قضـايا إنسـانية أساسـية مثـل انشـغال الإنسـان بمصـيره و تجربتـه فـي

الكون و إحساسه بالاغتراب ,و لكن هذا لا يعني أن السلوك الإنساني لا يخضع لأية سببية , وإنما يعني أن الرصد البراني لا يكفي , و المطلوب هو عملية تفسير من خلال الفهم العميق و التعاطف المستمر و الإدراك المبدع لتركيبية الدوافع الإنسانية و غموضها.

فشـــل النمـــوذج المـــادي فـــي تفســـير ظـــاهرة الإنســـان

تؤكــد العقلانيــة الماديــة عناصــر التجــانس و التكــرار و الكــم و الســببية و الآليــة، و لــذا فهــي تتســم بمقــدرة عاليــة نوعــا علــى رصــد حركــة الأشــياء و دراســتها، فالعقلانيــة الماديــة تتحــرك فــي إطــار الواحديــة الماديــة التــي تخضــع لهــا الأشــياء، أمــا الإنســان فهــو ظــاهرة تتجــاوز حــدود الواحديــة الماديــة. و لــذا فــإن ســلوكه، ســواء فــي نبلــه أو وضــعته، فــي بطولتــه أو خساســته، لــيس ظــاهرة ماديــة محضــة، و إنمــا ظــاهرة مركبــة لأقصــى حــد:

1-فعقــل الإنســان لــه مقــدرات تتحــدى النمــوذج التفســيري المــادي، حتــى إننــا نجــد عالمــا مثــل تشومســكي ينكــر تمامــا أن عقــل الإنســان مجــرد صــفحة بيضــاء ســلبية (و هــو الافتــراض الوحيــد المتــاح أمــام المــاديين) و إنمـــا هـــو عقـــل نشـــط يحـــوي أفكـــارا كامنـــة فطريـــة. و لــذا نجــد أن تشومســكي يتحــدث عــن معجــزة اللغــة باعتبارهــا ظــاهرة لا يمكــن تفســيرها فــي إطــار مــادي، و إنمــا فــي إطــار نمــوذج توليــدي يفتــرض كمــون المقــدرة اللغويــة فــي عقــل الطفــل و هــذا الكمــون يعنــي أن العقــل لـــيس مجـــرد المـــخ -مجموعـــة مـــن الخلايـــا و الأنزيمـــات. و جــان بياجيــه يقــدم رؤيــة توليديــة لتطــور الإنســان و تطــور إحساســه بالزمــان و المكــان. و تزايــد الاعتمــاد علــى النمــاذج التوليديــة، فــي مقابــل النمــاذج التراكميـــة، و هـــو دليـــل علـــى تراجـــع النمـــوذج المـــادي.

2-نــأتي إلــى مشــكلة الفكــر .يــدعي المــاديون أن الفكــر صــورة مــن صــور المــادة أو آثــار مــن آثارهــا (فالعقــل صــفحة بيضــاء تتــراكم عليهــا المعطيــات

الحسية و تتحول إلى أفكار كلية بطريقة آلية). و هي مقولة قد تبدو معقولة. و لكن تخلق من المشاكل أكثر مما تحل. و السؤال هو : لماذا يأخذ الفكر هذه الصورة بالذات؟ و لماذا تختلف أفكار شخص عن أفكار شخص آخر يعيش في الظروف نفسها؟ و هل الأفكار عصارات و أنزيمات تتحرك أم أنها شيء آخر؟ و ما علاقة المؤثر المادي بالاستجابة الفكرية أو العاطفية؟ و لنأخذ فكرة مثال السببية. المعطيات الحسية المادية غير مترابطة و لا علاقة لها بأي كليات. و مع هذا، يدرك العقل الواقع لا كواقع متناثرة و إنما كجزيئات تنضوي تحت كل متكامل، و لا يمكن أن يتم الإدراك إلا بهذه الطريقة. و لذا نجد الماديين) في عصر ما بعد الحداثة (ينكرون تماما فكرة الكل، و يعلن نيتشه موت الإله الذي يعني في الواقع نهاية الكل. و هجوم الماديين و الطبيعيين على الكل أمر طبيعي، ففكرة الكل تذكرنا بمعجزة الإنسان الذي يتجاوز النظام الطبيعي و حركة الأنزيمات و الذرات و الأرقام. ومن ثم، فإنها تخلق ثنائية راديكالية تستدعي مرجعية متجاوزة للنظام الطبيعي و هي الإله. فالكل يؤكد تجاوز الإنسان، و تجاوز الإنسان يؤكد وجود الإله كمقولة تفسيرية معقولة. و لذا لابد و أن تهاجم هذه الفلسفة فكرة الحل حتى يعود الإنسان إلى الطبيعة و يُستوعب فيها. و هكذا بدأت المادية بمحاولة تحطيم خرافة الميتافيزيقا، و انتهت بالهجوم على فكرة الحقيقة ذاتها.

3- و هناك أخيرا حس الإنسان الخلقي و الديني، و حسه الجمالي، و قلقه، و تساؤله عن الأسئلة النهائية الكبرى، و هي أحاسيس لا يمكن

تفسيرها على أساس مادي، فهو أمر أكثر صعوبة من تفسير وجود الأفكار. و كما ينتهي الفكر المادي بإنكار الفكر و الكل، فهو ينكر الحس الخلقي و الجمالي و يسقط الأسئلة النهائية .فعبارات مثل القتل شر و هذه اللوحة جميلة و قلق الإنسان بخصوص مصيره في الكون لا معنى لها من منظور مادي، تماما مثل عبارة الله رحيم أو الله موجود، فكلها عبارات لا يمكن إثباتها أو دحضها من خلال المنهج العلمي المادي.

4- و الفلسفات المادية تدور في إطار المرجعية المادية، و لذا فإنها ترسم صورة واحدية للإنسان، إما باعتباره شخصية صراعية دموية قادر على خرق كل الحدود و على إعلاء إرادته و توظيف قوانين الحركة لحسابه، أو باعتباره شخصية قادرة على التكيف مع الواقع و الخضوع لقوانين الحركة. و هذه صورة مستقطبة غير حقيقية :

أ) فالصورة الأولى تفشل في رصد تلك الجوانب النبيلة في الإنسان مثل مقدرته على التضحية بنفسه من أجل وطنه أو من أجل أبيه أو أمه، و مقدرته على ضبط نفسه من أجل مثل عليا.

ب) الصورة الثانية تؤكد أن الإنسان غير قادر على الثورة و التجاوز. و بالفعل، يلاحظ في العصر الحديث هيمنة نظم سياسية تسيطر عليها رؤى تكنوقراطية محافظة. و مع هذا، لم تنجح المادية تماما في قمع الإنسان و تسويته بالأمر الواقع. فالإنسان لا يزال غير راض، قلقا إن لم يعبر قلقه عن نفسه من خلال الثورة الناضجة فهو يعبر عن القلق

نفسه بأشكال مرضية.

5- المادية تفشل في تفسير إصرار الإنسان على أن يجد معنى في الكون و مركزا له، و حينما لا يجد معنى له فإنه لا يستمر في الإنتاج المادي مثل الحيوان الأعجم، و إنما يتفسخ و يصبح عدميا و يتعاطى المخدرات و ينتحر و يرتكب الجرائم دون سبب مادي واضح. و قضية المعنى تزداد حدة مع تزايد إشباع الجانب المادي في الإنسان، فكأن إنسانية الإنسان لصيقة بشيء آخر غير مادي. و البحث عن المعنى قد عبر عن نفسه على هيأة فنون و عقائد. و كما يقول علي عزت بيجوفيتش فإن) الدين و الفن مرتبطان بالإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض، أما العلم المادي فهو حديث، و فشل العلم المادي الذي يدور في إطار نماذج مادية في تفسير الإنسان و في التحكم فيه هو دليل فشله في إدراك الظاهرة الإنسانية و إدراك أن الحلول التي يأتي بها ناقصة.(

-المســــــاواة والتســــــوية

إذا تـم رصـد الإنسـان بشـكل موضـوعي ، طبيعـى/ مـادي، فـي إطـار المرجعيـة الماديـة الكامنـة فإنـه سـيتم إسـتبعاد مفهـوم الإنسـانية المشـتركة والجـوهر الإنسـاني ، وهـى أمـور متجـاوزة لعـالم المـادة . وبـدلاً مـن ذلـك سـيقوم الراصـد العلمـى بمـا يلـي:

أ (سـيتم رصـد الفـروق الماديـة بـين الشـعوب والأفـراد بكـل دقـة وعنايـة ، كمـا سـيتم تسـجيل الاختلافـات فـى الـذكاء والمقـدرة العضـلية بكـل دقـة وعنايـة ، كمـا سـيتم تسـجيل الأختلافـات فـى الـذكاء والمقـدرة العضـلية والفـروق الناجمـة غـن الأختلافـات فـى البيئـة ، وسـيتم كـذلك تسـجيل الأختلافـات التشـريحية بـين الرجـل والمـرأة ، وبـين الأقويـاء والضـعفاء ، وهـذا تعبيـر عـن النزعـة نحـو تأليـه الكـون فـى الـنظم الماديـة . ولـذا لـيس مـن قبيـل الصـدفة أن عنصـرية التفـاوت الغربيـة ، بمـا فـى ذلـك النازيـة والصـهيونية ، أسـتندت إلـى نظريـات ماديـة عـن الأختلافـات بـين الشـعوب ، وتـم اسـتبعاد الشـعوب وإبـادة الملايـين وتـدمير المعمـورة باسـم هـذه المنظومـة العلميـة التـى لا تعـرف الرحمـة أو التـراحم ، ولا تعـرف الضـحك أو البكـاء ولا الخيـر أو الشـر ، فهـى لا تعـرف سـوى القـوة والعنـف والبقـاء والهـلاك . وهـذه هـى عنصـرية التفـاوت وعـدم المسـاواة.

ب (يمكـن للرصـد العلمـى أن يتجاهـل كـل هـذه الفـروق ويركـز علـى

الصفات المادية المشتركة بين كل البشر ووظائفهم البيولوجية (التعبير عن النزعة نحو إنكار الكون). ولكن هذه الصفات المادية العامة المشتركة بين البشر هى ذاتها الصفات التى ترباط بين البشر والقردة العليا ، على سبيل المثال ، وتسوي بينهم، وهذه عنصرية التسوية .

فالرؤية المادية العلمية لا ترصد سوى الاختلافات المادية الواضحة أو الصفات العامة المادية المشتركة ، أى إنها رؤية تتأرجح وبحدة بين التفتت الذرى والوحدة الكونية العضوية . وفى كلتا الحالتين ، يتم استبعاد مفهوم الإنسانية المشتركة . وعنصرية التفاوت وعدم المساواة أمر معروف لدينا ، تم دراسته وتمحيصه ، ولكن عنصرية التسوية هى أمر جديد تماماً ، فهى عنصرية ما بعد الحداثة ، وهذا ما سنركز عليه فى بقية هذا الجزء.

أما المساواة ، فهى أن يتعادل شيء ما وآخر فى ((بعض)) الوجوه وحسب ، أما التسوية فهى إحداث التساوى بين شيئين فى ((كل)) الوجوه . والمساواة بين البشر هى مساواة بينهم فى الأساسيات الإنسانية ، أي فيما يميز الإنسان كإنسان ، أما التسوية فهي تسوية بين كل المخلوقات ، البشر والحيوانات والجمادات ، فى كل هذه الوجوه تقريباً . وكل من المساواة والتسوية نتاج عملية تجريدية ، ولكن المساواة تتم فى إطار المرجعية المتجاوزة والإيمان بأن الإنسان مقولة مستقلة عن عالم الطبيعة / المادة برغم من وجوده فيها . ولذا فإن التجريد يأخذ شكل نزع السمات الشخصية والفردية عن البشر بحيث تظهر السمات التي تميزهم بوصفهم بشراً ، والحدود التى تفصلهم عن

بقيـة الكائنـات فتتضـح تركيبـة الإنسـان وتميـزه عـن عـالم الطبيعـة / المـادة . أمـا التسـوية ، فهـى عملية تـتم فـى إطـار الطبيعـة / المـادة ، فيـتم نـزع كـل السـمات غيـر الماديـة عـن الإنسـان لتظهـر السـمات الماديـة المشـتركة بينـه وبـين بقيـة الكائنـات، ومـن ثـم تنـزع عـن الإنسـان كـل قداسـة وخصوصـية ومركزيـة وتركيبيـة ، وتسـقط حـدوده الإنسـانية ، ليصـبح الإنسـان مجـرد مـادة ، شـيئاً بـين الأشـياء يتسـاوى معهـا ويُسـوَّى بهـا. والمسـاواة ، لهـذا السـبب ، مفهـوم إنسـانى أخلاقـى دينـى يسـتند إلـى اساس غيـر مـادي ، مرجعيـة متجـاوزة ، أمـا مـا يسـمى بالمسـاواة فـى العصـر الحـديث ، فهـو فـى واقـع الأمـر تسـوية ، تـتم فـى إطـار مرجعيـة ماديـة كامنـة، أي إنهـا عمليـة تفكيـك للإنسـان وتـدمير وتقـويض لـه بوصـفه كيانـاً مسـتقلاً عـن الطبيعـة /المـادة. وقـد تـتم مسـاواة الإنسـان بالإنسـان الآخـر ، ولكـن تتسـم تسـويتهما بالإنسـان الطبيعـي المـادي الـذى يتسـاوى فـى كـل الوجـوه مـع الكائنـات الطبيعيـة الأخـرى. وفـى تصـورنا ، فـإن مفهـوم المسـاواة فـى الغـرب كـان يـدور فـى إطـار المرجعيـة المتجـاوزة ، وكـان ترحمتـه علمانيـة ، واعيـة أو غيـر واعيـة ، للفكـرة التوحيديـة المتمثلـة فـى قصـة الخلـق : خلـق الله آدم ، ونفـخ فيـه مـن روحـه ، وعلمـه الأسـماء كلهـا ، وقـد جئنـا كلنـا مـن صـلب آدم. فثمـة مسـاواة مبدئيـة بـين البشـر فـى الأساسـيات الإنسـانية ، أي فيمـا يميـزهم بشـراً ، فـى جـوهرهم الإنسـانى الـذي يفصـلهم عـن عـالم الطبيعـة/ المـادة. وتتحقـق إنسـانية الإنسـان بمقـدار تجـاوزه لكثيـر مـن دوافعـه الطبيعيـة والماديـة ، وبمقـدار إعلائـه لهـذه الـدوافع وتعبيـره عنهـا مـن خـلال أشـكال

إنسانية متميزة عن الأشكال الطبيعية المتاحة للحيوانات ، إذ ثمة أختلاف بينه وبين الطبيعة /المادة بسبب الثغرة أو المسافة التى تفصل بينهما. وفى هذا الإطار ، تصبح المساواة شكلاً من أشكال تحقيق الإنسانية وتحقق جوهر الإنسان ، فهي شكل من أشكال الاجتماع البشري وتحقيق لقيمة مطلقة متجاوزة للمادة والطبيعة ، بل ومتجاوزة لدوافع الإنسان المادية والجسدية ، أي تجاوز لما يسمى الإنسان الطبيعى (المادي) واقتراب لما يمكن أن نسميه الإنسان الرباني الذي يحوي داخله عناصر لا يمكن ردها إلى النظام الطبيعى ، أو لما يمكن أن نسميه الإنسان فى المنظور الهيومانى والذي لا يمكن أن يُرد إلى الطبيعة /المادة.

ولو قلنا)) : كلكم لآدم وآدم من تراب ((في إطار المرجعية المتجاوزة ، فإن آدم هنا يحوى داخله قبساً من الله سبحانه وتعالى تجعله مستخلفاً فى الأرض، أو يحوى داخله ذاته التى ترفض الإذعان للمادة ، وبذا يصبح كائناً حراً مسؤولاً عن أفعاله ، له هوية مستقلة ، وإرادة مستقلة ، ومقدرة على إدراك الخير والشر وما ينفع وما يضر ، ولا يمكن تفكيكه أو تقويضه . أما إذا قلنا العبارة نفسها في إطار المرجعية المادية الكامنة ، فإننا نرى آدم هو تراب وحسب ، ويمكن أن يُردَّ أما للتراب فيسوى بالطبيعة /المادة، فهو الإنسان الطبيعى الذي يمكن تفكيكه وتقويضه ورده إلى الطبيعة/ المادة ولا وجود مستقل له عنها ، تسري عليه القوانين الطبيعية سريانها على القرود والفراش والأشجار.

ولذا فإن التسوية تعنى اقتراباً متزايداً من حالة الطبيعة وتشكل هجوماً شرساً على الطبيعة البشرية وعلى كل المعايير أو الموازين التي تفترض وجود مرجعية إنسانية متجاوزة ، كما تأخذ شكل الابتعاد المتزايد عن الحالة الإنسانية والجوهر الإنسانى والاقتراب المتزايد من الفكرة المادية الطبيعية . فالتسوية لا تتم من خلال اقتراب البشر من خصوصيتهم الإنسانية وإنما تكمن فى مقدار تخليهم عن هذه الخصوصية وذوبانهم فى عالم الطبيعة العام حتى يصبح الإنسان إنساناً طبيعياً ، ثم يتطور هذا الإنسان ويزداد تخليه عن أي خصوصية إلى أن يصبح طبيعة/مادة محضاً ، خاضعاً تماماً لقوانين الحركة. ويلاحظ أن الحركة هنا هي الحركة العامة للنمط الحلولي الكموني الواحدي والتى تأخذ شكل التخلي التدريجي عن عبء الهوية الإنسانية ، بما يحمل من تكليف ومسؤولية وإحساس بالحدود، والعودة المتزايدة إلى الحالة الرحمية حيث لا مسؤولية ولا هوية ولا حدود، فهو إنتقال من المرجعية المتجاوزة والمركزية الإنسانية إلى المرجعية المادية الكامنة وإزاحة الإنسان عن المركز ثم إلى حالة السيولة الشاملة واختفاء كل المرجعيات.

ويلاحظ أنه ، على حين أن الأطار التوحيدى والهيومانى يفترض أن المساواة الكاملة مثل أعلى لا يتحقق ، لأن البشر يتفاوتون فى مقدرتهم على تحقيق الحالة الإنسانية ، فإن الإطار الحلولي الكموني الواحدي يفترض أنه يمكن الوصول إلى هذا التساوي الكامل بل والمطلق . ولكن المساواة المطلقة ، أي التسوية ، لو تحققت فإنها هى ايضاً

لحظة الهيولى والعدم المطلق . إذ يختفي الإنسان كياناً مستقلاً له قيمته ومركزيته ، ويلتحم بالسيولة الكونية الرحمية الحلولية الكبرى ، إذ يصبح الإنسان إنساناً طبيعياً تماماً خاضعاً لقوانين الطبيعة ولا يختلف عن الطيور والقرود واليرقات.

ويخلط معظم الدارسين بين النمطين : المساواة فى إطار المرجعية المتجاوزة (والتوحيد) والتسوية الحلولية الكمونية . ويعود ذلك لأسباب ، من بينها أنه عادةً ما يتم فصل المؤشر والدال فى العلوم الإنسانية عن سياقه ويصبح دالاً يشير إلى مدلول واحد. ولذا ، فإنه إذا وردت كلمة مساواة مقصوداً بها المساواة الإنسانية فى نص يدور فى إطار المرجعية المتجاوزة توحيدي وإنساني هيوماني، فإن الدارسين عادةً ما يتصورون أن الكلمة تشير إلى مدلول واحد فيخلطون بينهما ، برغم أختلاف الدلالات باختلاف السياق . ومما يساعد على هذا الخلط أنه في عصر النهضة فى الغرب، ظهرت رؤيتان إلحاديتان : واحدة متمركزة حول الإنسان بوصفه كائناً مركباً حراً مستقلاً عن الطبيعة)) التمركز حول الذات ((، والأخرى متمركزة حول الطبيعة/المادة) التمركز حول الموضوع .(وقد تم تصنيفهما على أنهما رؤية واحدة ، مع أنهما مختلفتان تماماً .ففي إطار الرؤية المتمركزة حول الإنسان، يصبح الإنسان مركزاً للكون ، خليفة للإله أو بديلاً لع ، وبشكل مرجعية نهائية متجاوزة نوعاً ما لعالم المادة ، فيظل هناك شكل من اشكال الهرمية والثنائية) أعلى/اسفل- إنسان/طبيعة – ذات/موضوع (وهى بقايا الرؤية

التوحيدية بعد علمنتها. ولكن نطاق الرؤية الحلولية الكمونية الواحدية المادية يتسع ويزداد تغلغلها وهيمنتها إلى أن تنحسر الرؤية الإنسانية الهيومانية تماماً، ويتم رد الإنسان إلى عالم الطبيعة والمادة، وتظهر مركزية الطبيعة/المادة والمرجعية المادية الكامنة. ويستمر اتساع نطاق الواحدية المادية إلى أن يتم نصفية أي مطلق أو معيار أو مرجعية متجاوزة أو نهائية (إلهية كانت أم إنسانية) لنصل إلى عالم لا مركز له) عالم ما بعد الحداثة (يتساوى فيه الإنسان تماماً بالأشياء،ويتم التسوية بينهما إذ يتم الهجوم على أى مركزية أو معيارية.

الهجوم على الطبيعة البشرية

تنكر الفلسفة المادية وجود أي جوهر مستقل عن حركة المادة فهي تدور في إطار المرجعية المادية الكامنة ووحدة الوجود المادية ومن ثم لايحقق أي عنصر في الكون تجاوزا بما في ذلك الإنسان والفلسفة العقلانية المادية حينما تتعامل مع الإنسان تنظر إليه في إطار نموذج تحليلي مادي/طبيعي يستبعد كل خصائصه الغير طبيعية مثل تركيبته ومقدرته على التجاوز واسقلاله عن المقولات المادية/الطبيعية ثم تقوم بتفكيكه إلى عناصره الأولية المادية" الحقيقية "وترده في كليته إلى مبدأ مادي واحد وتقوم بتعميم المبادئ العلمية والرياضيةعلى جميع الظواهر بما ذلك الإنسان ومن هنا الهجوم المادي الحتمي الشرس على الطبيعة البشرية والجوهر الإنساني أي على تلك السمات التي تميز الإنسان كإنسان مقدرته على التجاوز أو انشغاله بالأسئلة النهائية الكبرى أو استقلاله عن الطبيعة /المادة فمهوم الطبيعة البشرية يعني أن ثمة مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي المادي تسمى الإنسان تستعصي على التفسيرات الطبيعية/المادية وهذا يمثل فضيحة معرفية إذ إن ثنائية الإنسان /الاله أو الخالق /المخلوق ولذا لابد وأن تستوعب الطبيعة البشرية تماما في النظام الطبيعي ولابد وأن يختفي الإنسان وان تهيمن المرجعية الكامنة الواحدية المادية وان تزول كل الثنائيات او تحيد بحيث تصبح متوازنه ومتعادلة تماما.

ومـع هــذا يحــدث احيانــا فــي داخــل المنظومــة الواحديــة الماديــة ان يصــبح الإنســـان هـــو مركـــز الكـــون المتجـــاوز لـــه فتظهـــر ثنائيـــة الإنســـان/ الطبيعيــة وهــذا هــو اســاس الفكــر الإنســاني الهيومــاني التمركــز حــول الــذات ومرجعيــة متجــاوزة فــي إطــار مــادي ولكــن مثــل هــذه الثنائيــة واهيــة غيــر حقيقيــة فالفلســفة الماديــة كمــا اســلفنا تنكــر وجــود أي جوهرمســتقل عــن حركــة المــادة ومــن ثــم لايمكــن لأي عنصــر بمــا فــي ذلــك الإنســان أن يحقــق تجــاوزا للنظــام المــادي الطبيعــي ولــذا لابــد أن تســري القــوانين الواحديــة الماديــة فــي نهايــة الأمــر وفــي التحليــل الأخيرعلــى الإنســان ســريانهاعلى الطبيعــة ,فيصــبح الإنســان بوعيــه و فهمــه وحســه الخلقــي جــزءاً لا يتجــزأ مــن حركــة المــادة خاضــعاً لهــا , وتصــبح هــي المركــز ,و ينتصــر الموضــوع علــى الــذات ويــذوب الإنســان ويختفــي و يفقــد مقدرتــه علــى التجــاوز ,و يُســتوعب تمامــاً فــي لنظــام الطبيعــي , فمــوت الإنســان هــو نتيجــة حتميــة للرؤية المادية و موت الإله,

وسنحاول أن نضرب بعض الأمثلة المعاصرة على هذا الهجوم الشرس على الإنسان وطبيعة البشرية:

1- وحدة العلوم

لنأخذ الحوار الدائر منذ عصر النهضة ، والذي لم ينته بعد، عن وحدة العلوم. فهناك من يرى أن هناك علوماً وحسب ، يمكن عن طريقها دراسة كل من الإنسان والطبيعة دون تمييز أو تفريق بين علوم طبيعية وأخرى إنسانية ، وهؤلاء يرون أن كل العلوم تهتم بوقائع لا تختلف فى حالة الإنسان عن حالة الحيوان ، ولكن هناك أيضاً من يرى أن العلوم الإنسانية في تصورهم تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية . فالواقعة فى السياق الإنساني ينتجها موجود إنساني له ظاهر وباطن، وله معايير وقيم وأهداف ومقاصد ومشاعر وهواجس ، أما وقائع العلوم الطبيعية فهى مجرد حركة فى الزمان والمكان ولها وجود حسى وملموس. والوقائع الإنسانية ليست ماثلة أمامنا بشكل مباشر ، فهى مرتبطة بعالم الدوافع التى تحركها، والرموز التى تعبر عنها ، وحتى يمكننا الوصول إليها لا بد وأن نكد ونتعب ونفسر ونتعاطف مع الإنسان ، أما الوقائع الطبيعية فهى وقائع مباشرة تخضع للإدراك الحسي ، ولذا فالوقائع الإنسانية تخضع للفهم الذى ينفذ إلى المعانى الباطنة داخل الأشياء، أما الوقائع الطبيعية تخضع للتفسير . إن الوقائع الإنسانية ذات طبيعة كيفية خالصة، أما الوقائع الطبيعية فيمكن التعبير عنها بلغة الكم.

ونحــن لــو دققنــا النظــر لوجــدنا أن الصــراع الــدائر هنــا هــو صــراع بــين المــرجعيتين ، المرجعيــة المتجــاوزة والمرجعيــة الكامنــة، يأخــذ شــكل صــراع بــين دعــاة الإيمــان بالإنســان المتجــاوز للطبيعــة ، الــذي يســتند وجــوده إلــى نقطــة خــارج النظــام الطبيعــي ، مــن جهــة ومــن جهــة أخــرى دعــاة الإيمــان بالطبيعــة الماديــة التــى تحــوي داخلهــا مــا يكفــي لتفســيرها والــذين يســاوون بــين الإنســان والكائنــات الطبيعيــة ويســووون بينهمــا فيســقطون الإنســان كمقولــة مســتقلة فــى النظــام الطبيعــي، ومــن هنــا فــنحن نصــفهم بالعــداء للإنســان) بالإنجليزيــة : أنتــى هيومــانيزم . (anti- humanisim

فــدعاة الإيمــان بالطبيعــة يــرون أن القــوانين العامــة للعــالم هــى القــوانين الكامنــة فــى المــادة والتــى تســرى علــى كــلٍّ مــن الطبيعــة والإنســان دون أي تفرقــة أو تمييــز ، وأننــا ســيزداد تحكمنــا فــى أنفســنا وفــي الطبيعــة ، وأن المعرفــة هــى تزايــد معرفتنــا بقــوانين الحركــة الماديــة العامــة ، ذلــك لأن المنحنــى الخــاص للظــاهرة الإنســانية ومــا يميــز الإنســان كإنســان (جــوهره الإنســانى وتركيبيتــه ومقدرتــه علــى التجــاوز) أمــور لا تهــم ، ولهــذا ينــادي دعــاة وحــدة العلــوم بأنــه مــن الممكــن أدخــال كــل شــيء فــى شــبكة الســببية الصــلبة والمطلقــة ودراســته مــن خــلال النمــاذج الرياضــية التــى تتجــاوز المرجعيــة المتجــاوزة، ربانيــة كانــت أم إنســانية. قــد نخطــيء فــى محاولتنــا ولكننــا نعيــد الكــرة وتــزداد معرفتنــا ويــزداد تحكمنــا، وتــدار التجــارب فــى إطــار محايــد خــالٍ مــن أي قــيم إنســانية أو أخلاقيــة تضــع حــدوداً علــى التجريــب ، أو تطــرح أي غائيــة خاصــة بالإنســان، او تمنحــه أي مركزيــة،

فكـل الأمـور متسـاوية ، ولـذا لابـد وأن يخضـع كـل شـيء للتجريـب الـذي يسـتبعد أي معـايير غيـر علميـة وغيـر ماديـة مثـل السـمات البشـرية ، أو القـيم الأخلاقيـة ، أو الطبيعـة البشـرية ، ومـن ثـم يختفـي الإنسـان ويسـوى بـالحيوان ، وتختفـى معـه العلـوم الإنسـانية وتصـبح كـل العلـوم طبيعيـة ، تـدرس قـوانين المـادة كمـا يطالـب دعـاة وحـدة العلـوم.

وأنطلاقـاً مـن مفهـوم وحـدة العلـوم ، أو واحـديتها الماديـة، يبـدأ تأسـيس علـوم طبيعيـة تسـتبعد الجـوهر الإنسـاني ومفهـوم الطبيعـة البشـرية . وممـا لاشـك فيـه أنـه إن اراد الإنسـان أن يبنـي جسـراً فإنـه لا بـد أن يعـرف طبيعـة المـواد التـى سـيبنى بهـا هـذا الجسـر، ، وطريقـة تنظيمهـا وتركيبهـا وخواصـها... إلـخ. ومـن دون هـذه المعرفـة ، لايمكـن ان يـدعى أنـه علـى ((علـم)) بالجسـر. ولتأسـيس علـم الحيـوان ، مـثلاً ، لابـد أن نعـرف نطـاق هـذا العلـم مـن خـلال تعريـف الحيـوان مقابـل الإنسـان والنبـات. وحتـى فـى العلـوم الغيـر دقيقـة، مثـل النقـد الأدبـي وتـاريخ الفنـون ، لابـد تـتم الأجابـة عـن سـؤال مـا الأدب؟ والسـؤال الـذي لابـد أن نطرحـه هـو : هـل يمكـن تأسـيس علـوم إنسـانية دون معرفـة الإنسـان؟ هـذا مـا حـدث بالفعـل فـي العلـوم الإنسـانية الغربيـة إذا اختفـت الإشـارات إلـى الطبيعـة البشـرية تمامـاً فيهـا ، ولا يمكـن الحـوار إلا مـن خـلال المؤشـرات الكميـة والجـداول والقـرائن الماديـة المباشـرة.

وحينمـا ترسـم هـذه العلـوم صـورة الإنسـان ، فإنـه يكـون إنسـاناً طبيعيـاً

وظيفياً ذا بُعد واحد ، آلياً يتحرك فى إطار الدوافع والمثيرات. ويُقسم إلى الذات والذات العليا الهو، ويدفعه الإيروس والثاناتوس) فرويد (أو النماذج الأصلية) يونج .(وكما يقول على عزت بيجوفيتش، فلقد تم طرد النفس من علم النفس ، وفي الأقتصاد نجد الإنسان مجموعة من المصالح الإقتصادية، ، وفى علم الأخلاق هو كيان تحركه الرغبة فى البقاء المادي وتحقيق الملصلحة المادية . أما فى علم الأجتماع، فقد اعلن دوركهايم أن الظواهر الأجتماعية مستقلة عن الأفراد، وتتمتع بسلطة قاهرة تفرض نفسها على الأفراد عن طريق الإكراه، وأن الضمير الفردي صدى للضمير الجمعي. فعندما يتكلم ضميرنا فمعنى ذلك أن المجتمع هو الذي يتكلم فينا، فالفرد ((ذرة إجتماعية)) يدرسها علم الاجتماع الذي كان ينوى كونت تسميته الفيزياء الأجتماعية! اما الأنثربولوجيا) علم الإنسان (!فهو يؤكد أن الإنسان ليس له طبيعة وإنما له تاريخ. وإن كانت لديه خاصيات عند الولادة . فهى مجرد استعدادات شفافة لا تصمد أمام مؤثرات المحيط القادر على تشكيل الإنسان كيفما شاء. ففى الإنسان لا توجد دوافع نفسية ثابتة اللهم إلا دافع الجنس والأكل ، أما دافع المعرفة والعاطفة والتملك فهي فى نظر بعض الدراسات الأنثربولوجية متغيرة تظهر وتختفي بحسب عوامل البيئة . كما سمعت النظريات التاريخية (المادية) إلى بيان أن الإنسان كائن تشكَّل عبر التاريخ وعبر علاقاته مع الطبيعة ومع الآخرين وأنه قبل ذلك لم يكن إنساناً ، وليس فى طبيعة الإنسان خاصيات أولية مشتركة بين الناس لأنه ليس للإنسان طبيعة. فالإنسان هو مجموع علاقاته الإنتاجية

وهـو لحظـة مـن لحظـات جـدل الطبيعـة، هنـا تنتفـى الـذات الفرديـة لتخلـي مكانهـا للـذات الجماعيـة وتتراجـع الـذات الواقعيـة الطامحـة لحسـاب الـذات التاريخيـة الخاضـعة للحتميـة التاريخيـة المتحكمـة فـى مسـار التـاريخ. وحتـى فـى عـالم الأدب ، الملجـأ الأخيـر للـنفس البشـرية ، ظهـرت الفلسـفات البنيويـة والتفكيكيـة التـى تحـاول أن تطهـر ذاتهـا مـن آخـر المطلقـات الإنسـانية (أي الطبيعـة البشـرية) ، ولـذا يتحـول النقـد الأدبـي إلـى محاولـة لرصـد أنمـاط وبنـى وألعـاب لغويـة ، تـدخل فيهـا الـذات الإنسـانية وتصـبح خاضـعة لهـا.

إن العلـوم التـي تـدعى أنهـا إنسـانية وتـدور فـى نطـاق المرجعيـة الماديـة الكامنـة تنطلـق مـن الإيمـان بأنـه لا توجـد عناصـر إنسـانية عالميـة أو طبيعـة بشـرية ثابتـة أو مسـتقرة خاصـة ، فمـا يوجـد هـو ممارسـات وعقائـد لا يبتنظمهـا إطـار . وكمـا يقـول فوكـوه)) : لا يوجـد ذات إنسـانية ثابتـة فـى التـاريخ ، ولا يوجـد حالـة طبيعيـة إنسـانية، ولا يوجـد شـيء فـى الإنسـان (حتـى جسـده) ثابـت بمـا فيـه الكفايـة يصـلح أساسـاً ليتعـرف الإنسـان علـى ذاتـه ولـيفهم الآخـرين .((فكـل شـيء فـى ذلـك الإنسـان حـادث . بـل عرضـي وطـاريء، ومـن ثـم محتمـل الوقـوع والـزوال. ولا مهـرب مـن إدراكنـا لهـذه الحقيقـة) ولحقيقـة القـوة والهيمنـة، مطلـق فوكـوه الوحيـد (، أي إن كـل الأمـور ، بمـا فـي ذلـك الإنسـان –كمـا يعـرف الجميـع الآن فـى الغـرب– ماديـة ونسـبية وخاضـعة لـذلك القـانون الواحـدي العـام الـذى يسـرى علـى الطبيعـة والإنسـان.هذا يعنـي فـى واقـع الأمـر أنـه لا توجـد

معيارية إنسانية ، أي لا توجد سوى معيارية موضوعية شيئية .إن ما يحدث هنا هو إلغاء ثنائية الإنسان/الطبيعة، أى ثنائية الجنس البشرى/ الأشياء، ليسود عالم الكم والأرقام والنماذج الاختزالية البسيطة التى قد تعطي من يستخدمها راحة كبيرة ومقدرة على الإنجاز ، ولكنها تفكك الإنسان تماما ثم تقتله. وليس من قبيل الصدفة أن الفلسفة السائدة الآن فى الغرب هى الفلسفة التفكيكية التى تهدف إلى تصفية كل الثنائيات ، وعلى كلٍّ فإن هو ميرات الاستنارو المظلمة والمضيئة.

ولكن هناك النموذج الآخر الذي يرى الإنسان ظاهرة منفردة متجاوزة) ربانية (لايمكن مساواته أو تسويته بالكائنات الطبيعية. ولا شك أن الإنسان يحوي كثيراً من العناصر الطبيعية، وهى عناصر لابد أن تخضع بشكلٍ ما ، وفي بعض جوانبها . إلى التجريب الطبيعى، وتدخل شبكة السببية الصلبة. لكن الإنسان يظل يملك ما يتحدى التجريب وما لا يمكن معرفته ولا يمكن استيعابه داخل هذه لالشبكة ، إذ إن أي محاولة من هذا النوع لابد أن تبوء بالفشل . ولذا ، فإن أكثر النماذج التفسيرية كفاءة ، حسب هذا التصور، هي النماذج المنفتحة الفضفاضة التى تعترف بثنائية الإنسان والطبيعة ، وبأن الطبيعة البشرية والقيم الأخلاقية والغائية النابعة من مركزية هذا الإنسان هى المرجعية النهائية لدراسة ظاهرة الإنسان، وأن هناك ما يمكن معرفته وإدخاله في شبكة السببية الصلبة والمطلقة، وذلك مع تأكيدها بأن هناك ايضاً ما لايمكن معرفته أو اصطياده، ومن ثم فإن الوصول إلى تفسيرات كاملة وحلول

نهائيــة أمــر مســتحيل . ولــذا، فقــد أقتــرح هــؤلاء أن الإنســان لا يُشــرح ، ولا يُفســر كمــا نفعــل مــع الظــواهر الطبيعيــة، وإنمــا يُفهــم ويُــؤول ، ومــن هنــا ظهــرت مدرســة الهرمنيوطيقــا والتأويــل التــى تنظــر إلــى الإنســان باعتبــاره ظــاهرة مركبــة تستعصــي علــى التفســير مــن خــلال النمــاذج الطبيعيــة الماديــة .

ويقــول دعــاة هــذا النمــوذج الــذي يــدور فــي إطــار المرجعيــة المتجــاوزة ، إن الــنظم المعرفيــة الماديــة نظــم واحديــة تســعى إلــى تفســير كــل الظــواهر تفســيراً كــاملاً ن ولــذا فهــي تســقط فــى حلــم نهايــة التــاريخ ، حيــث يصــبح مــا كــان مجهــولاً معروفــاً . ومــن ثــم فهــى تقــوم بتفكيــك الإنســان وتســويته بكــل الأشــياء الأخــرى ومــن هنــا ، فــإن نهايــة التــاريخ تأخــذ دائمــاً شــكل يوتوبيــا تكنوقراطيــة تســير حســب قــوانين الاشــياء العلميــة الماديــة الموضــوعية ، فــى دقــة صــارمة ، وكأنهــا متــرو مدينــة "ليــل" فــى فرنســا الــذي يســير بــلا ســائق بشـــــــــــــــــــــــــــــــــــــرى.

أمــا الــنظم التــى تنطلــق مــن الاعتــراف بثنائيــة الإنســان/الطبيعة ، فهــى لا يمكــن أن تســقط فــي مثــل هــذه الرؤيــة الســاذجة، ومــن ثــم فــإن إســتراتيجية أنســنة العلــوم بالنســبة إلــى هــؤلاء تتكــون مــن : اســترجاع مفهــوم الطبيعــة البشــرية ككيــان مركــب لايمكــن أن يُــرد للنظــام الطبيعــي، ولا أن يســوى مــع الأشــياء الطبيعيــة ، أي اســترجاع الثنائيــة التقليديــة. وإن تــم اســترجاع مفهــوم الطبيعــة البشــرية، فإنــه ســيتم معــه اســترجاع القــيم الإنســانية والأخلاقيــة كقــيم

اساسية فى عمليات البحث العلمي في مجال الطبيعة والإنسان، فاستبعاد هذه القيم هو الذى أدَّى إلى السقوط في الواحدية الكونية المادية وإلى تسوية الإنسان بالحيوان وإلى انفصال التجريب العلمي المادي عن العقلانية الإنسانية.

2-نظريـــــــــــــة الحقـــــــــــوق الجديـــــــــــدة

كثيـر مـن الحركـات التحرريـة الجديـدة الداعيـة)) للمسـاواة ((فـى عصـر مـا بعـد الحداثـة تختلـف تمامـاً عـن الحركـات التحرريـة القديمـة، فـي عصـر الحداثـة. فالحركـات الجديـدة تـدعوا فـي واقـع الأمـر إلـى التسـوية ، فهـي تـرفض مفهـوم الطبيعيـة البشـرية المتجـاوزة للطبيعـة/المادة وللإنسـان الـذي يشـغل مركـزاً متميـزاً فـى الكـون، وتصـدر عـن فهـم للإنسـان باعتبـاره جـزءاً لا يتجـزأ مـن الطبيعـة/المادة لايتسـم بـأي تجـاوز لهـا أو تعـالٍ عليهـا .وانطلاقـاً مـن هـذا ن تؤسـس حركـات التحـرر الجديـدة نظريتهـا فـي الحقـوق ، فنجـد جماعـات تـدافع عـن الفقـراء والسـود والشـواذ جنسـياً والأشـجار وحقـوق الحيوانـات والأطفـال والعـراة والمخـدرات وفقـدان الـوعي ، وعـن كـل مـا يطـرأ ومـا لا يطـرأ علـى بـال، ولعـل شـيوع الرؤيـة الحلوليـة الكمونيـة الواحدية فـي العصـر الحـديث هـو الـذي يُفسـر سـر انتشـار الـديانات الطبيعيـة والعبـادات الجديـدة والنزعـات الكونيـة والـدفاع الحلـولى الكمـونى عـن البنيـة، فكلهـا دعـوات تؤكـد اسـبقية الكـون علـى الإنسـان، وتـدعوا الإنسـان إلـى الـذوبان فـي الكـون، وتلغـى كيانـه كمقولـة مسـتقلة عـن عـالم الطبيعـة . ويُعـد رفـض الإنسـان تأييـد هـذه الـدعوة للتسـوية فعـلاً رجعيـاً ورفضـاً للتقـدم،مع أن رفضـه فـى واقـع الأمـر محاولـة للعـودة إلـى الإنسـانية والتراجـع عـن حالـة الطبيعـة الماديـة) البهيميـة(، كمـا انـه دفـاع عـن مركزيـة الإنسـان فـى الكـون ورفـض تسـويته ومسـاواته بالحيوانـــــــــــــــــــــــــــــــات.

وفـي هـذا الأطـار ، يمكننـا أن نعيـد النظـر فـي هـذا الـدفاع الشـرس عـن الشـذوذ الجنسـي والـدعوة إلـى تطبيعـه ، فهـو فـي جـوهره لـيس دعـوة للتسـامح أو لـتفهم وضـع الشـواذ جنسـياً ، بـل هـو هجـوم علـى المعياريـة البشـرية، وعلـى الطبيعـة البشـرية كمرجعيـة نهائيـة ومعيـاراً ثابتـاً يمكـن الوقـوف علـى ارضـه لإصـدار أحكـام وتحديـد مـا هـو إنسـاني ومـا هـو غيـر إنسـاني. والشـذوذ الجنسـي هـو محاولـة أخـرى لإلغـاء ثنائيـة إنسـانية اساسـية هـى ثنائيـة الـذكر/ الأنثـى التـى تسـتند إليهـا المعياريـة الإنسـانية.

بـل أننـا نـرى أن الحـديث المتـواتر والمتـوتَّر عـن حقـوق الإنسـان والـذي تقـوده اكثـر الـدول إمبرياليـة فـى العـالم، الولايـات المتحـدة، هـو فـي جـوهره هجـوم علـى الإنسـان والطبيعـة البشـرية. فالإنسـان الـذي يتحـدثون عـن حقوقـه هـو وحـدة مسـتقلة بسـيطة أحاديـة البعـد لا علاقـة لـه بأسـرة أو مجتمـع أو دولـة ، وهـو مجموعـة مـن الحاجـات المجـردة التـى تحـددها الأحتكـارات وشـركات الإعلانـات والأزيـاء وصـناعات اللـذة. والفـرد هنـا هـو وحـدة تتلقـى عديـداً مـن الأشـارات الحسـية البسـيطة الكثيفـة مـن مؤسسـات عامـة لا خصوصـية لهـا ولا تحمـل أى قـيم، إلا فكـرة تعظـيم الأربـاح.وحقوق مثـل هـذا الإنسـان هـى فـي واقـع الأمـر اسـتمرار للهجـوم علـى الطبيعـة البشـرية بوصـفها كيانـاً مركبـاً متجـاوزاً للطبيعـة/المادة. ولـذا، لـم يتحـدث أحـد عـن حـق الإنسـان فـي وقـف تيـار الأباحيـة التـي تُصـدَّر مـن الغـرب، والتـي تهـدر ابسـط الحقـوق الإنسـانية . وكـذلك لا يتحـدث احـد

عـــن حقـــوق الأفـــراد (الشـــعوب) الـــذين سُـــرقت وتُســـرق امـــوالهم وتـــودع فـــي بنـــوك غربيـــة مـــن قبـــل شخصـــيات تســـاندها الحكومـــات نفســـها التـــي تصـــرخ عـــن حقـــوق الإنســـان، ولـــم يحـــتج أحـــد علـــى صـــناعة اســـلحة الفتـــك والـــدمار التـــى يطـــور ويصـــنع معظمهـــا فـــي العـــالم الغربـــي. فالحـــديث دائمـــاً يجـــرى عـــن إنســـان مجـــرد بســـيط لا يوجـــد داخـــل المجتمـــع والتـــاريخ والأســـرة. ولـــذا، نجـــد أن الحـــديث ينصـــب علـــى الحقـــوق المطلقـــة لهـــذا الفـــرد؛ أي حقـــوق تتجـــــاوز حقـــــوق المجتمـــــع ومنظوماتـــــه الأخلاقيـــــة والمعرفيـــــة.

ويظهـــر الهجـــوم علـــى الطبيعـــة البشـــرية مـــن خـــلال نظريـــة الحقـــوق المطلقـــة فـــي المفهـــوم الجديـــد للأقليـــات الـــذي يروجـــه النظـــام العـــالمى الجديـــد، وهيئـــة الأمـــم المتحـــدة، وبعـــض الجماعـــات التـــى تـــدور فـــي فلكهـــا. فالجماعـــات الدينيـــة الصـــغيرة أقليـــة ، والجماعـــات الإثنيـــة الصـــغيرة أقليـــة ، والشـــواذ جنســـياً اقليـــة ، والنســـاء أقليـــة ، والمعوقـــون أقليـــة، والمســـنون أقليـــة، والبـــدينون اقليـــة والأطفـــال أقليـــة ،، وكـــل واحـــد فـــيهم لـــه حقـــوق مطلقـــة. وهـــذا يـــؤدي فـــى واقـــع الأمـــر إلـــى أن فكـــرة المجتمـــع الـــذي يســـتند إلأى عقـــد اجتمـــاعي تصـــبح مســـتحيلة إذ إن الحقـــوق المطلقـــة لا يمكنهـــا التعـــايش. وهـــذا مـــا حـــدث فـــي فلســـطين المحتلـــة حـــين جـــاء اليهـــود بحقـــوق يهوديـــة مطلقـــة شـــردت الفلســـطينيين وهـــدمت وطـــنهم. ولكـــن الأخطـــر مـــن هـــذا هـــو أن تكـــون الغالبيـــة العظمـــى مـــن النـــاس أقليـــات ، فهـــذا يعنـــى أنـــه لا يوجـــد اغلبيـــة، أي لا يوجـــد معياريـــة إنســـانية، فتصـــبح كـــل الأمـــور نســـبية متساوية وتسود الفوضى المعرفية والأخلاقية.



3- حركـــــــة التمركـــــــز حـــــــول الأنثـــــــى

ولعـل أهـم نظريـات الحقـوق هـى النظريـة التـى تـدعو لهـا الحركـات النسـائية الجديـدة. ولعـل الخلـط المصـطلحي السـائد فـي هـذه الحركـات (التحـرر) هـو ذاتـه تعبيـر متبلـور عـن الصـراع الـدائر بـين النمـوذجين: نمـوذج المرجعيـة المتجـاوزة والجـوهر الإنسـاني المسـتقل وإمكانيـة المسـاواة. ونمـوذج المرجعيـة الماديـة الكامنـة. فقـد ظهـر فـى اللغـات الغربيـة (الإنجليزيـة مصـطلح ويمنـز ليبريشـن موفمنـت **movement liberation women's** الـذى يتـرجم عـادةً إلـى حركـة تحريـر المـرأة والـدفاع عـن حقوقهـا، وهـذا مـا كـان يفهـم مـن هذاالمصـطلح بشـكلٍ عـام فـي اللغـات الأوروبيـة. ثـم ظهـر منـذ عـدة سـنوات مصـطلح فيمنيـزم **feminism** وحـل محـل المصـطلح الأول وكأنهمـا مترادفـان، وكـأن المصـطلح الأخيـر اكثـر شـمولاً أو أكثـر راديكاليـة مـن المصـطلح الأول، ولـيس مختلفـاً عنـه تمـام الأخـتلاف . ولكننـا لـو دققنـا النظـر فـي هـذا المصـطلح الأخيـر لوجـدنا أنـه يشـير فـى واقـع الأمـر إلـى مـدلولين مختلفـين تمـام الأخـتلاف : حركـة تحريـر المـرأة ومـا يمكـن تسـميته حركـة التمركـز حـول الأنثـى وهمـا حركتـان – فـى تصـورنا – مختلفتـان، بـل ومتناقضـتان. فحركـة تحريـر المـرأة هـى حركـة أجتماعيـة ذات مرجعيـة إنسـانية متجـاوزة، بمعنـى أنهـا تـرى المـرأة باعتبارهـا جـزءاً مـن المجتمـع، كائنـاً مسـتقلاً عـن عـالم الطبيعـة/المادة لايمكـن تسـويته بـالظواهر الطبيعيـة، ومـن ثـم تحـاول ان تـدافع عـن حقوقهـا داخـل المجتمـع. وبـرغم ان هـذه الحركـة– فـي رأينـا

- حركة علمانية في رؤيتها، تستند إلى فكرة العقد الأجتماعى (والإنسان الطبيعي والإنسان الأقتصادي)، إلا أن مثلها الأعلى يحوي داخله أبعاداً إنسانية اجتماعية مركبة، متجاوزة للطبيعة/ المادة، لعلها بقايا الرؤية التوحيدية والهيومانية فى الغرب، وهي رؤية تفترض مركزية إنسانية وعيارية إنسانية معينة ، وهى بمثابة المرجعية النهائية ، المتجاوزة للطبيعة/المادة والتى تضع حدوداً بينه وبينها فلا يذوب فيها ويسوى بالكائنات الأخرى. ومع تصاعد معدلات العلمنة وهيمنة المرجعية الكامنة، بدأت هذه البقايا في التبخر، وتراجع البعد الأجتماعي الذى يفترض مركزية إنسانية وهوية إنسانية منفردة ، وثنائيةالإنسان والطبيعة، وتم إدراك الأنثى خارج أي سياق اجتماعى إنساني وكأنها كائن طبيعى مادي يتساوى مع الأشياء الطبيعية المادية الأخرى. ولنا أن نلاحظ أن ما يحدث هنا هو عملية تفكيك لمقولة المرأة كما تم تحديدها وتعريفها عبر التاريخ ، لتحل محلها مقولة جديدة تماماً تسمى المرأة أيضاً ولكنها مختلفة في جوهرها عن سابقتها. وهذا جزء من عملية تفكيك مقولة الإنسان التي تقوم بها الحضارة الغربية العلمانية الحديثة في إطار المرجعية المادية الكامنة حين أعلنت أن الإنسان لا يتحرك في إطار المرجعية المتجاوزة، وإنما هو كائن طبيعي مادي ينتمي للطبيعة/المادة، وسمت الكائن الطبيعي الجديد الإنسان الطبيعي، الإنسان غير الإنسان ، الإنسان الذي يُرد إلى مرجعية مادية غير إنسانية، ومن ثم فهو يتساوى مع الكائنات الأخرى. ونحن نرى أن الخطاب المتمركز حول الأنثى يفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى المرأة،

فـالأنثى فـي الغطـار التعاقـدي هـي مركـز الأسـرة وعمودهـا الفقـري، ومـن ثـم فهـي مركـز الإنسـانية التـي نعرفهـا ، وهـي المؤسسـة التـي يحتمـي بهـا الإنسـان ويحقـق مـن خلالها جـوهره . وقـد تـم تقسـيم العمـل فـي هـذا الإطـار.لكن ضـرب هـذا المركـز هـو ضـرب للإنسـانية كمـا نعرفهـا وللطبيعـة البشـــــــــــــــرية كمـــــــــــــــا خبرناهــــــــــــــــــا.

إن البرنـامج الإصـلاحي الـذي تطرحـه حركـة التمركـز جـول الأنثـى لا يهـدف إلـى تحقيـق مسـاواة بـين الرجـل والمـرأة أو إلـى تغييـر القـوانين أو السـياق الأجتمـاعي للحفـاظ علـى إنسـانية المـرأة باعتبارهـا أمـاً وزوجـة وابنـة وعضـواً فـي الأسـرة أو المجتمـع ، وإنمـا يرمـي إلـى تفكيـك مقولـة المـرأة فـي إطـار المرجعيـــة الماديـــة، لتصـــبح إنســـاناً طبيعيـــاً، ويـــنم عـــن هـــذا شـــكلين متناقضــــتين، يعبــــران عــــن نزعتــــي تأليــــه الكــــون وإنكــــاره:

أ –تأكيـد الفـوارق التشـريحية بـين الرجـل والمـرأة . وتصـبح الخصـائص التشـريحية للمـرأة هـي قـدرها، والخصـائص التشـريحية للرجـل هـي ايضـاً قـدره، ومـن ثـم تصـبح المـرأة هـي عـدو الرجـل وينحـل العـالم إلـى ثنائيـة صـارمة: ثنائيـة الأنـا والآخـر، ولا توجـد أي مرجعيـة إنسـانية جوهريـة مشـتركة بينهما.فـالمرأة فـي حالـة صـراع كـوني مـع الرجـل، وكأنهـا الشـعب المختـار فـي مواجهـة الأغيـار، وتظهـر نظريـات عـن ذكـورة وأنوثـة الإلـه وعـن الفهـم الأنثـوي للتـاريخ وعـن اسـتحالة التواصـل بـين الـذكر والأنثـى ، فـالأنثى متمركـزة حـول ذاتهـا وفـي حالـة صـراع كـوني مـع الـذكر، ومهمـة

البرنامج الإصلاحى المتمركز حول الأنثى هو تحسين أدائها في عملية الصراع هذه . كما تهدف هذه البرامج إلى تغيير الإنسانية لتعكس الثنائية الصلبة ، بل وتهدف إلى فرض الثنائية على التحليل التاريخي.

ويتم الهجوم على ما يسمى ذكورة اللغة ولكنه في واقع الأمر هو هجوم على اللغة البشرية وحدودها وتشويه وأيقنة لها. فهل نحن نفكر في كلمة الأمانة باعتبارها أنثى، وفى لفظ الشيطان بأعتباره ذكراً؟ وحينما نقول : أبواب ، هل نفكر في أعضاء التذكير، بينما نفكر في اعضاء التأنيث حينما نقول بوابات أم أن هذا هو وجدان الحلوليين الكمونيين الواحديين الطبيعيين الماديين الذين يستخدمون الجنس عنصراً اساسياً لإدراك كل شيء؟ وهل يمكن أن يكون استخدام كلمة الإنسان وهي تعبير عن الذكر والأنثى ، حلاً للمشكلة ؟ الأجابة بطبيعة الحال، بالنفي ، لكن المهم هو طرح برامج نقدية مستحيلة ، غير قابلة للتنفيذ ، وذلك حتى يتم تقويض حدود اللغة القائمة والمرجعية الإنسانية المتجاوزة.

يُنظر للمرأة باعتبارها اقلية، وكلمة اقلية هنا لا تعني أقلية عددية مضطهدة، وأنما تعنى فى واقع الأمر أنه لا يوجد اغلبية من أي نوع، إنسانية مشتركة ، ولا يوجد معيار يحكم به، فالجميع مساوون ولا يمكن الحكم على أحد ، أي إن الأقلية تعني اختفاء المرجعية الإنسانية.

ب -ويمكن أن تأخذ عملية التفكيك لمقولة المرأة شكلاً مغايراً تماماً إذ تصبح المرأة كائناً طبيعيًّا تتم تسويتها بالرجل في جميع الوجوه بحيث لا تختلف عنه في أي شيء، دورها لا يختلف عن دوره، إي إنه تم أختزال الرجل والمرأة إلى مستوى واحد. وتسويتهما في إطار من الواحدية الكونية المادية يعبرَّ عن نفسه في ظهور الجنس الواحد أو الجنس الوسط بين الجنسين (بالإنجليزية : يوني سكس (**unisex** ، أي إنه تم رد الواقع إلى عنصر واحد أو مبدأ واحد ينكر أي عدم التجانس أو أي تنوع، بل وينكر وجود ثنائية ذكر/أنثى، فالذكر مثل الأنثى والأنثى مثل الذكر.

وكما أن الإنسان في المنظومة العلمانية الواحدية يتم إعادة صياغته بحيث يصبح إما فوق الإنسان أو دون الإنسان (سوبر مان نيتشه أو الإنسان العادي- إرادة القوة أو التكيف والمرونة- قاتل أو مقتول) ، فإنه يتم إعادة صياغة المرأة بحيث تصبح إما اكثر من مرأة (عدو الرجل) أو أقل من امرأة (متطابقة مع الرجل تماماً :اليونيسكس). وفي كلتا الحالتين، ليس المرأة هي الأم- الزوجة - الأخت - الحبيبة التي نعرفها والتي لها دور مستقل داخل إطار الجماعة الإنسانية الشاملة التي تضم الذكور والإناث والصغار والكبار. وبسقوط الأم والزوجة ، تسقط الأسرة ويتراجع الجوهر الإنساني أو يصبح كل البشر أفراداً طبيعيين لكلِّ مصلحته الخاصة يجابهون الدولة وقطاع اللذة والإعلانات

بمفردهم، ويسقطون في قبضة الصيرورة، ويتم تسوية الجميع بالحيوانات والأشياء.

4- مشكلة القيمة في المجتمعات العلمانية (الرأسمالية و الاشتراكية الحديثة)

ثمة مشكلة أساسية كامنة في المجتمعات العلمانية التي تستند إلى عقد اجتماعي نابع من الإيمان بحقوق الإنسان الطبيعية، و هو عقد -كما نعلم- ينص على مساواة كل البشر. و لكن الإطار العام هو المرجعية المادية الكامنة (الطبيعة/المادة)، الأمر الذي يعني استبعاد أي قيم متجاوزة مطلقة، و استبعاد الإنسان أيضا كقيمة مطلقة. و من ثم، يصبح نموذج المجتمع هو حركة الذرات المتساوية المتحركة المتصارعة، و هو نموذج بسيط للغاية لا يعترف بالهرمية أو التراتبية و لا يميز بين ذرة و أخرى. و الذرات تتحرك من تلقاء نفسها و يسود النظام بشكل آلي من تلقاء نفسه، تماما كما يحدث في عالم الأشياء و الحيوان، فثمة تسوية كاملة بين الإنسان و الأشياء. و تؤدي هذه الرؤية، بطبيعة الحال، إلى نسبية أخلاقية يتساوى داخلها الخير بالشر. و تعبر هذه المرجعية المادية الكامنة عن نفسها في مفهوم السوق/المصنع و الإيمان بأن كل شيء يرد إلى المادة و بأن البناء الفوقي يمكن تفسيره في كليته في ضوء البناء التحتي (في النظام الاشتراكي.)

و لكن إلى جانب هذا العالم الذري الأملس المستوي، الذي وقع في قبضة الصيرورة، الخالي من القيم المطلقة و الذي لا مركز له، يوجد الإيمان (في كل من الرأسمالية و الاشتراكية) بعزة النفس و بكرامة الإنسان و حقوقه المطلقة و بالعدالة، فهو إيمان بمطلقات متجاوزة

لعالم الصيرورة المادية، و من ثم هي تفصل الإنسان عن عالم الطبيعة، و تميز بينه و بين الأشياء و ترفض التسوية بينهما، و يتم ترتيب عناصر الواقع بموجبها. فما هو خير، هو ما يقترب في هذه القيم) الجوهرية (و يحققها، و ما هو شر هو ما يبتعد عنها. و تستند النظرية الماركسية إلى الإيمان بوجود جوهر إنساني يشكل الابتعاد عنه اغترابا، و من ثم فإن مفهوم الاغتراب الماركسي هو تعبير عن التمسك الإنساني الهيوماني بالمطلقات الإنسانية مثل العدالة و منع الاستغلال و مساواة الإنسان بأخيه الإنسان، و هي مطلقات تشكل جوهر الاشتراكية في حقبتها البطولية، و باسمها تتم الثورة ليتجاوز الإنسان واقعه و ينهي حالة اغترابه. فكأن هناك نموذجان : واحد حلولي كموني مادي ينكر التجاوز، و الآخر يدور في إطار مرجعية متجاوزة داخل إطار مادي. و هنا، يبدأ الصراع الحاد الخاص بالقيمة في المجتمعات العلمانية، فإذا كان ثمة إيمان بالقيم المطلقة، فمن ذا الذي يقرر هذه القيم؟ الإجابة الحديثة عن هذا السؤال، في إطار المرجعية المادية الكامنة، هو : الأغلبية العددية، و يقال أيضا : العلم الطبيعي الذي يسوي بين الإنسان و الطبيعة، فلا يوجد أي حقيقة مفارقة لواقعنا الأرضي و صيرورتنا الزمنية، أي إن المتجاوز المفارق، القيم المطلق مثل الكرامة و العزة، تسقط في الصيرورة، الأغلبية العددية و العلم الطبيعي. و هنا، تظهر الإشكاليات المختلفة. فماذا يحدث لو قررت الأغلبية الاستعناء تماما عن مفهوم الطبيعة البشرية الجوهرية المتميزة عن الطبيعة المفارق لها و بدأت تحكم على البشر من منظور حلولي كموني واحدي طبيعي

مادي كمي؟ ماذا لو قررت الأغلبية، متسلحة بالرؤية العلمية المادية الطبيعية، ضرورة إبادة المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم؟ أليس من حق أعضاء أي مجتمع يدور في إطار الحلولية الكمونية أن يقرروا أي قرار طبيعي مادي دون العودة إلى أي مرجعية إنسانية مفارقة؟ أليس من حقهم استئصال جزء من الجسد يراه صاحب هذا الجسد ضارا، بما في ذلك أعضاء الأقليات غير المرغوب فيهم؟ أليس هذا أمرا طبيعيا ماديا لا يمكن الوقوف ضده إلا بالعودة إلى مرجعية متجاوزة و منظومة قيمية مطلقة تؤكد القيمة المطلقة للإنسان؟

و ماذا لو أن أعضاء الأغلبية، انطلاقا من إيمانهم بأن الإنسان كائن يتساوى مع كل الكائنات الأخرى قرروا التخلي عن قيم إنسانية، مثل القيم الاشتراكية عن العدالة و مركزية الإنسان، و آثروا الاستغراق في قيم طبيعية مادية مثل الإنتاج و الاستهلاك باعتبارها أمورا ألذ و أظرف و أكثر طبيعية و أكثر مادية و معقولية من عملية الدفاع عن هذه القيم، كما حدث في الاتحاد السوفيتي حين سقطت المنظومة الاشتراكية؟ و تصبح الأمور أكثر إشكالية، على صعيد العلاقات الدولية، لو قررت دولة مثلا غزو الدول الشعبية الأخرى، فما الأساس الأخلاقي لمحاولة وقفها عن عدائها، مع غياب المرجعية الإنسانية المشتركة المتجاوزة؟ و ماذا لو قررت دولة ما التوسع في إنتاج السلع، الطبيعة المادية التي لا علاقة لها بأي مرجعية إنسانية أو ربانية، المرتبطة بإباحية الأطفال كما تفعل الدانمارك، أكبر منتج لهذه الأشياء في العالم، و هل من حق الجماعة الدولية إيقافها؟ و ما هو هرم القيم الذي يجعلنا نفترض أسبقية

قيمة أخلاقية إنسانية مطلقة غير طبيعية الوقوف ضد غزو الشعوب و الإباحية على قيمة طبيعية مادية خالصة مثل الإنتاجية و الربح؟ و على أي أساس تعارض الأمم المتحدة الآن في انضمام بعض الجماعات المدافعة عن ممارسة اللواط مع الصبية ممن لم يبلغوا سن الرشد بعد؟ و إن قبلنا باللواط باعتباره أسلوبا مختلفا من أساليب الحياة و تعبيرا عن حرية الإنسان و ميله الجنسي، فما هذا الحديث عمن لم يبلغوا سن الرشد بعد؟ و لماذا يكون ذلك أمرا مباحا لمن بلغوا سن الرشد و غير مباح لمن لم يبلغوا هذه السن السحرية بعد؟ أليست كل الأمور طبيعية مادية نسبية متساوية؟ أو لم يتم تسوية الإنسان بالإنسان و الإنسان بالطبيعة؟

5- الثقافة الشعبية و الهجوم على الطبيعة البشرية

هذا الهجوم الواضح على الإنسان في العلوم الإنسانية الغربية العلمانية يظهر في أشكال كثيرة في حياتنا اليومية. فيلاحظ في الثقافة الشعبية التي تصدرها هوليود شيوع شخصيات لا علاقة لها بالطبيعة البشرية أو بالإنسان كما نعرفه، فهناك شخصيات ما فوق الإنسان)طرزان – رامبو – .. إلخ(، و لكن هناك شخصيات دون الإنسان) فرانكشتاين – مادونا(، و هي كلها شخصيات لا علاقة لها بالإنسان و لا بالطبيعة البشرية تذكرنا بإنسان داروين و نيتشه و فرويد .و سلوك الإنسان الجنسي و أحلامه هي شأن خاص تماما مرتبط بفرديته و رؤيته للنفس.

و لـذا، نجـد أن الهجـوم علـى الطبيعـة البشـرية فـي مجـال الثقافـة اليوميـة قـد ركـز علـى هـذا الجانـب ببراعـة فائقـة إذ إنـه يمكـن صـياغة أحـلام الإنسـان الجنسـية بطريقـة تجعلـه يقبـل اختفـاء المعياريـة الإنسـانية المركبـة المتجـاوزة للطبيعـة/المادة. و نحـن نـرى أن انتشـار الإباحيـة فـي العـالم الغربـي لـيس مجـرد مشـكلة أخلاقيـة و إنمـا هـي أيضـا قضـية معرفيـة. فالإباحيـة هـي جـزء مـن هـذا الهجـوم علـى الطبيعـة البشـرية و علـى قداسـة الإنسـان و محاولـة تفكيكـه، فقـد قامـت الرؤيـة العلمانيـة الإمبرياليـة بتطبيـع الإنسـان، أي رأتـه كائنـا طبيعيـا ماديـا بسـيطا و حسـب، و نظـرت إليـه باعتبـاره مـادة نسـبية صـرفة لا قداسـة لهـا. و الإباحيـة هـي تعبيـر عـن الاتجـاه نفسـه، فتجريـد جسـد الإنسـان مـن ملابسـه هـو نـوع مـن نـزع القداسـة عنـه حتـى يتحـول الإنسـان، خليفـة الله فـي الأرض فـي الـرؤى الدينيـة، و مركـز الكـون فـي الـرؤى الإنسـانية، إلـى مجـرد لحـم يوظـف و يسـتغل بحيـث يصـبح مصـدرا للـذة. و مـن هـذا المنظـور، يمكـن أن نـرى الإبـادة النازيـة لليهـود و غيـرهم علـى أنهـا شـكل مـن أشـكال الإباحيـة أو الإمبرياليـة الكاملـة التـي تـؤدي إلـى مـوت الإنسـان الفعلـي، فهـي حولـت البشـر إلـى صـفوف و تـلال لحـم توظـف و ينتفـع بهـا و لـذا، فـنحن نـرى أن ثمـة تشـابها بـين اللحظـة النازيـة و اللحظـة التايلانديـة فـي الحضـارة العلمانيـة، فكلاهمـا أسـقط القداسـة عـن الإنسـان و رآه مـادة اسـتعمالية توظـف فـي أعمـال السخرة في ألمانيا و في البغاء في تايلاند.

الفصل الثالث

العقل و المادة

تستخدم كلمة عقل و كأنها كلمة واضحة المعالم محددة الأبعاد، دال مدلوله واضح تمام الوضوح. و لكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن الأمر جد مختلف، و أن العقل يدور في إطار مرجعية معينة تشكله و تحدد مجاله.

العقل المادي

العقل في اللغة الحجر و النهي، و قد سمي بذلك تشبها بعقل الناقة، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود.

و العقل في الخطاب الفلسفي) خصوصا الغربي (كلمة غامضة للغاية لها معان كثيرة متناقضة أحيانا. و عادة ما يوضع العقل في مقابل الخيال و التجربة و الإيمان و العاطفة، و لكن هناك أيضا من يرى ضرورة ارتباط العقل بكل هذه المقولات، كما يرى أنه من دونها يصبح أداة مدمرة.

و هناك من يرى أن العقل إن هو إلا جزء لا يتجزأ من الطبيعة–المادة، و هذا هو العقل المادي، و لكن هناك أيضا من يرى أن العقل يتمتع

باستقلالية عنها. فعلى سبيل المثال، عرف الفلاسفة الماديون العقل بأنه صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات الحسية لتصبح أفكارا بسيطة، و تتجمع الأفكار البسيطة من تلقاء نفسها) و من خلال قوانين الترابط (لتصبح أفكارا مركبة، و تستمر عملية التركيب إلى أن نصل إلى ما نتصور أنه الأفكار الكلية و الثوابت و المطلقات مع أنها في واقع الأمر مجرد أحاسيس مادية، فكأنه لا يوجد في العقل شيء لا يوجد أصلا في الواقع المادي. هذه هي الصورة المبدئية للعقل المادي، و لكنها يمكن أن تأخذ أشكالا أكثر صقلا، فالنظرية الدراروينية ترى أن العقل قد ظهر من خلال عملية تطور كامنة في المادة ذاتها. و ترى الماركسية أن العقل ظهر من خلال علاقة الإنسان بالطبيعة و ببقية البشر أثناء العملية الإنتاجية. أما دوركهايم فقد تحدث عن العقل الجمعي، و أنه من الجماعة بمثابة الضمير من الفرد. و لكن العقل الجمعي، في نهاية الأمر و في التحليل الأخير، إن هو إلا صورة مركبة مجردة اجتماعية من العقل التجريبي الفردي الذي يكون المعرفة من خلال مراكمة المعطيات الحسية) فلا يوجد في العقل شيء لا يوجد له أصل في الواقع المادي.(

أما الفلسفات التي يقال لها مثالية، فترى أن العقل قوة في الإنسان تدرك المبادئ العامة التي تتحكم في الواقع، كما تدرك المعاني العامة غير المادية، مثل : ماهية الظواهر، أي كنهها لا ظواهرها، و الوجود و العدم، و الجوهر في مقابل العرض، و العلية و المعلولية، و الغاية و الوسيلة، و الخير و الشر، و الفضيلة و الرذيلة، و الحق و الباطل، و

الجـزء و الكـل، و علاقـة كـل هـذه الثنائيـات بعضـها بـبعض، و يعـرّف العقـل بأنـه الملكـة التـي يحصـل بهـا للـنفس علـم مباشـر بالحقـائق المطلقـة. فكـأن هـذا العقـل شـيء مسـتقل عنـا. و كـل إنسـان يشـعر بـأن فـي داخلـه عقـلا محـدودا لا يصـحح أحكامـه إلا باسـتلهام عقـل كلـي ثابـت لا يتغيـر. و قـد عـرّف العقـل كـذلك بأنـه مجمـوع المبـادئ الصـلبة، المنظمـة للمعرفـة، كمبـدأ عـدم التنـاقض، و مبـدأ السـببية، و مبـدأ الغائيـة. و تتميـز هـذه المبـادئ بضـرورتها و كليتهـا و اسـتقلاليتها عـن التجربـة، و مـن هنـا التمييـز بـين النزعـة العقلانيـة و النزعـة التجريبيـة. و قـد خلـص بعـض الفلاسـفة مـن ذلـك إلـى المعـاني الأوليـة التـي يكشـف عنهـا الفكـر موجـودة فـي العقـل قبـل اتصـاله بـالحس، و أن العقـل لـيس صـفحة بيضـاء لـم يـتم نقشـها، و إنمـا هـو ذو رسـوم فطريـة تـنظم معطيـات التجربـة. و يشـير كـانط إلـى مـا يسـميه العقـل المجـرد أو العقـل الخـالص أو العقـل المحـض، و هـو مـا يسـمو علـى عـالم الحـس و التجربـة و العقـل التجريبـي، و هـو ضـرب مـن العقـل النظـري، و هـو مـا ينصـب علـى الإدراك و المعرفـة، كمـا يشـير إلـى العقـل العملـي، و هـو مـا ينصـب علـى الأخـلاق و السـلوك.

و يلاحـظ أن ثمـة تأرجحـا هنـا بـين تصـنيف العقـل علـى أنـه ينتمـي لعـالم الطبيعـة/المادة و التجربـة جـزء لا يتجـزأ منهـا، العقـل المـادي، و بـين كونـه يعلـو عليهـا مسـتقلا عنهـا، العقـل المثـالي أو غيـر المـادي، و يظهـر هـذ التـأرجح منـذ بدايـة تـاريخ الفلسـفة و الفكـر فـي العـالم. فأرسـطو يميـز بـين العقـل بالفعـل) و هـو فاعـل (و العقـل بـالقوة) و هـو منفعـل .(و قـد نسـب

شراح أرسطو إلى العقل بالفعل صفات تسمو به على عالم المادة و تبرئه من الفناء. و يلاحظ التأرجح نفسه في فكر مدرسة فرانكفورت حيث يميزون بين العقل النقدي) الذي يمكنه تجاوز الطبيعة (و العقل الأداتي و هو العقل الإجرائي الذي لا يحقق تجاوزا.

و قد حاولت المدرسة الألمانية المثالية أن تحل مشكلة التأرجح هذه بافتراض تقابل و تماثل كاملين بين العقل و الطبيعة، فالعقل الكلي يتجلى في كل من عقل الإنسان و الطبيعة/المادة، فيوحد بينهما و يجعل معرفة الواحد هي معرفة الآخر، أي إن المثالية الألمانية الواحدية تسقط في نهاية الأمر و في التحليل الأخير في الواحدية المادية التي ترد كل شيء إلى قوانين المادة، و ذلك برغم استخدامها اصطلاحات تنم عن الواحدية المثالية. و من هنا كان يمكن أن يخرج من هذه المدرسة هيجل و يخرج من تحت عباءته شيلنج و فخته من ناحية و فيورباخ و ماركس من ناحية أخرى.
و في الخطاب الفلسفي العربي الاستناري، عادة ما تستخدم كلمة العقل بشكل بسيط و مباشر و بشكل مطلق دون إيضاح، و لكن السياق يدل على أن المقصود هو العقل المادي القادر على التواصل مع الواقع بشكل مباشر دون أي مشاكل أو قلق، الأمر الذي يدل على عدم إدراك، أو إغفال متعمد، للقضايا التي أثارتها الفلسفة الغربية حين نصبت العقل المادي حكما. و عملية التأرجح التي دامت مئات السنين، والمحاولات، البطولية العبثية، المختلفة التي بذلها الفلاسفة

الغربيـون للتغلـب علـى عمليـة التـأرجح هـذه، هـي محـاولات أدت فـي نهايـة الأمـر إلـى ظهـور الماديـة الجديـدة و اللاعقلانيـة الماديـة التـي أعلنـت إفـلاس العقـل و نهايتـه. و عمليـة الإغفـال هـذه تـدل علـى أن الخطـاب الفلسـفي العربـي آثـر أن يبـدأ مـن حيـث بـدأ الغـرب، حـين كـان لا يـزال علـى مشـارف منظومتـه التحديثيـة الاسـتنارية الماديـة، لا مـن حيـث انتهـى، بعـد أن اكتملـت كثيـر مـن حلقـات المتتاليـة التحديثيـة الاسـتنارية الماديـة و بعـد أن تكشـفت معالمهـا، و بعـد أن أدرك كثيـر مـن المفكـرين و الفلاسـفة الغـربيين بعـض نقـط قصـور العقـل المـادي التـي يمكـن أن نوجزهـا فيمـا يلـي :

1-العقـل المـادي يوجـد داخـل حيـز التجربـة الماديـة محكـوم بحـدودها، و لـذا فهـو لا يكتشـف إلا ذاتـه فـي الواقـع و لا يهتـدي إلا بقـوانين المـادة الكامنـة فـي الأشـياء، و لا يمكنـه التعامـل لا مـع الواقـع و لا مـع كافـة الظـواهر إلا فـي هـديها.

2-ينسـحب هـذا علـى العقـل ذاتـه، و هـو يـتم تفكيكـه فـي إطـار الطبيعـة- المـادة، و يـرد إليهـا باعتبـاره جـزءا لا يتجـزأ منهـا، يسـري عليـه مـا يسـري عليهـا مـن قـوانين كامنـة فـي المـادة، و هـو مـا يعنـي إنكـار مقـدرة العقـل علـى التجـاوز و الوصـول إلـى الكليـات.

3-العقـل المـادي يصـبح بهـذه الطريقـة، أداة الطبيعـة-المـادة) و النمـاذج التـي تـدور فـي إطارهـا (فـي الهجـوم علـى الإنسـان، بـدلا مـن أن يكـون علامـة انفصـاله عنهـا و أسـبقيته عليهـا.

4-العقـل المـادي محايـد و قـادر علـى رصـد مـا هـو كـائن و غيـر قـادر

على إصدار الأحكام و على التعرف على ما ينبغي أن يكون، و لذا فهو يتعرف على الحقائق المادية و حسب، و لا يمكنه أن يتعرف على قيمتها. فالحقائق كمّ أما القيمة فكيف، و الحقائق أشياء ملموسة توجد في حيز التجربة المادية، أما الأخلاق فهي تنتمي إلى عالم يتجاوز حدود مثل هذه التجربة. و لذا، لا يمكن للعقل أن يصل إليها، و إن وصل إليها فهو ينكرها تماما و يردها إلى عالم المادة. و يفشل تماما في التمييز بين ما هو أخلاقي و ما هو غير أخلاقي، و بين ما هو إنساني و ما هو غير إنساني، و بين ما هو قبيح و ما هو جميل.

5- العقل المادي معاد للتاريخ، فالتاريخ بنية إنسانية متجاوزة لعالم الطبيعة-المادة، و هي تتسم بالتنوع و التركيب و الإبهام، أما العقل المادي -كما أسلفنا- فإنه يتعامل بكفاءة مع الأرقام و الصيغ البسيطة الواضحة و يدور في إطار الطبيعة-المادة.

6- و لكل هذا، نجد أن العقل المادي، بعد حقبة ثورية أولية، يتحول إلى عقل تكنوقراطي محافظ رجعي يذعن للأمر الواقع و قوانين الواقع الثابتة، فهو غير قادر على تجاوزها أو نقدها، فهي الأساس الذي يستند إليه، و مهمته في الإطار المادي هي رصدها في دقة بالغة و موضوعية تامة و سلبية كاملة.

7- العقل المادي لا يرصد سوى التشابه و التواتر و التجانس و العمومية، فهو عاجز عن رصد عدم الاستمرار والفرادة، و لذا فهو يقوم بتجريد الإنسان من خصوصيته و فرادته و تركيبته.

8- العقل المادي ينظر للواقع بمنظار كمي و يفرض المقولات الكمية

علـى الواقـع، فيرصـد الواقـع باعتبـاره كما و أرقامـا و سـطحا بسـيطا خاليـا مـن الأسـرار، فمـا يستعصـي علـى القيـاس يظـل بمنـأى عنـه و غيـر موجـود، و مـن ثـم يختفـي الكيـف تمامـا ويتحـول الإنسـان مـن كيـف إلـى كـم محـض.

9- العقـل المـادي غيـر قـادر علـى إدراك الإبهـام أو التركيـب، و لـذا فهـو يقـوم بتبسـيط الإنسـان و اختزالـه فـي صـيغ كاميـة رياضـية بسـيطة.

10- العقـل المـادي عقـل تافـه سـطحي، فهـو لا يمكنـه أن يسـأل أيـا مـن الأسـئلة الكليـة و النهائيـة الكبـرى) مـا الإنسـان؟ مـا مصـيره فـي الكـون؟ كيـف يواجـه المـوت؟ مـا نطـاق حدوديتـه و شـموليته؟ (فهـي أسـئلة لا معنـى لـه مـن منظـوره، قضـايا فارغـة، علـى حـد قـول الوضـعيين، لا يمكـن البرهنـة علـى صـدقها أو كـذبها.

11- العقـل المـادي لا يرصـد سـوى التفاصـيل المتنـاثرة التـي لا يربطهـا رابـط، و لـذا فهـو يـؤدي إلـى التشـظي. و لكنـه قـادر أيضـا علـى رصـد التماثـل و العموميـة، دون الخصوصـية التـي تـؤدي إلـى التفـرد. ممـا يفقـد الواقـع ألوانـه و شخصـيته. و قـد شـبه الواقـع المـادي بأشـعة إكـس التـي يمكنهـا أن تكشـف جمجمـة الـرأس لكـن لا يمكنهـا أن تنقـل لنـا صـورة الوجـه الإنسـاني فـي أحزانـه و أفراحـه.

12- العقـل المـادي عقـل غيـر قـادر علـى إدراك القادسـة و الأسـرار، و لا يعـرف الحرمـات أو المحرمـات، و لـذا فهـو ينـزع القداسـة بكـل صـرامة عـن كـل الظـواهر بمـا فـي ذلـك الإنسـان، و يراهـا باعتبارهـا مـادة اسـتعمالية

13- العقـل المـادي عقـل عنصـري غيـر قـادر علـى إدراك الكليـات) إلا الطبيعـة/المادة(، و لـذا فهـو يسـقط مفهـوم الإنسـانية المشـتركة، فهـو

مفهوم مركب لا يمكن قياسه. و بدلا من ذلك، يتأرجح العقل بين قطبين متنافرين : عنصرية التفاوت، و عنصرية التسوية. فالعقل المادي قادر على رصد الاختلافات الجوهرية بين الناس، فيؤكد التفاوت بينهم، أو) على النقيض من هذا (هو قادر على أن يصدر البشر باعتيارهم كيانات بيولوجية و حسب، و من ثم لا توجد أي اختلافات كيفية بين كل الأفراد و بين الإنسان و الحيوان، فالإنسان شأنه شأن الحيوان، مجموعة من الوظائف البيولوجية و الكيميائية، و عدد من الغرائز و التفاعلات الحتمية، و لذا فإن العقل المادي لا يسوي بين كل البشر و حسب، و إنما يسوي كل البشر و الحيوانات.

14- العقل المادي، لأنه لا يمكنه إدراك الكليات أو القيمة أو الثوابت أو المطلقات أو المقدسات، عقل تفكيكي عدمي قادر على تفكيك الأشياء كما يقول دعاة ما بعد الحداثة عاجز عن إعادة تركيبها. عقل يفرز قصصا صغرى و حسب، أي مجموعة من الأقوال التي ليست لها أي شرعية خارج نطاقها المباشر و الضيق تماما مثل إدراك العقل المادي للعقل المادي بطريقة حسية مباشرة، و هو عقل عاجز عن إنتاج القصص الكبرى أو النظريات الشاملة و عن التوصل للحقيقة الكلية، و من ثم لا يوجد بالنسبة إلى هذا العقل التفكيكي المادي، خير أو شر أو عدل أو ظلم، و لا توجد أية ثنائية من أي نوع. و هو أمر متوقع بعد أن صفى هذا العقل ثنائية الإنسان و الطبيعة.

15- العقل المادي، لكل ما تقدم، عقل إمبريالي فهو عقل لا يلتزم بأي مقاييس أخلاقية و ينكر الإنسانية المشتركة، كما أنه لا تحده

حدود أو سدود، و لذا فهو لا يمكنه إلا التفكير في هزيمة العالم) الإنسان و الطبيعة (و اختزاله و تحييده و حوسلته و تحويل الطبيعة و الإنسان إلى مادة استعمالية، فكل الأمور متساوية و نسبية و لا قداسة لها.

و نحن نذهب إلى أن العقل الإنساني، شأنه شأن الظاهرة الإنسانية، مادي في بعض جوانبه، و لكنه في جوانب أخرى متجاوز للمادة. أي إنه ليس عقلا ماديا واحديا و لا مثاليا واحديا، و إنما عقل إنساني مركب يعيش في ثنائية الجسد و الروح التكاملية، و لا يمكن رده إلى أي شيء خارجه في عالم المادة.

العقل الأداتي والعقل النقدي

مصطلح العقل إذن ليس مصطلحاً بسيطاً . وقد ساهم مفكرو مدرسة فرانكفورت) ماركوز – هوركهايمر– أدرنو – هابرماس (في إلقاء المزيد من الضوء على العقل وإشكالياته ، فميزوا بين العقل الأداتي والعقل النقدي، وبيَّنوا وحشية العقل الأداتي. والعقل الأداتي ترجمة للمصطلح الإنجليزي إنسترومنتال ريزون **reason instrumental** ويُقال له إيضاً العقل الذاتي أو التقني أو الشكلي وهو على علاقة بمصطلحات مثل العقلانية التكنولوجية أو التكنوقراطية ويقف على الطرف النقيض من العقل النقدي او الموضوعي. والعقل الأداتي هو العقل الذي يلتزم، على المستوى الشكلي، بالأجراءات دون هدف أو غاية، أي إنه العقل الذي يوظف الوسائل في خدمة الغايات دون تساؤل عن مضمون هذه الغايات، وهل هي إنسانية أم معادية للإنسان؟ وهو، على المستوى الفعلي، العقل الذي يحدد غاياته وأولوياته وحركته انطلاقاً من نموذج عملي مادي بهدف السيطرة على الطبيعة والإنسان وحوسلتهما.

وفي محاولة تفسير هيمنة العقل الأداتي على المجتمعات الغربية الحديثة ، يرى اعضاء مدرسة فرانكفورت أن احد أهم اسباب ظهوره هو آليات التبادل المجردة في المجتمع الرأسمالي. فتبادل السلع يعني تساوي الأشياء المتبادلة، فما يُهم في السلعة ليس قيمتها الإستعمالية

المتعينـــة وإنمـــا ثمنهـــا المجـــرد. والأيـــدولوجيا النابعـــة مـــن هـــذا التبـــادل المجـــرد هـــي أيـــدولوجيا واحدية تمحـــي الفـــروق وتُوحـــد الواقـــع مســـاويةً بـــين الظـــواهر المختلفـــة بحيـــث يصـــبح الواقـــع كلـــه مـــادةً لاســـمات لهـــا. ولـــم تشـــكل المجتمعـــات التـــي كانـــت اشـــتراكية إي بـــديل ، فهـــي الأخـــرى ســـيطر عليهـــــا العقـــــل الأداتـــــي متمـــــثلاً فـــــي التكنوقراطيـــــات الحاكمـــــة . ولا يفســـر اعضـــاء مدرســـة فرانكفـــورت اصـــول العقـــل الأداتـــي اســـتناداً إلـــى عناصـــر ماديـــة أو اقتصـــادية أو سياســـية وإنمـــا يرجعونـــه إلـــى عنصـــر ثقـــافي حضـــاري علـــى طريقـــة مـــاكس فيبـــر. فالعقـــل الأداتـــي –حســـبما يـــرى هوركهـــايمر وأدورنـــو –يعـــود إلـــى الأســـاطير اليونانيـــة القديمـــة، خصوصـــاً اســـطورة أوديســـيوس بأعتبـــار أن الأليـــاذة والأوديســـة همـــا اللبنـــة الأســـطورية الأساســـية للوجـــدان الغربـــي .وقـــد جـــاء فـــي الأوديســـا أن اوديســـيوس طلـــب مـــن بحارتـــه أن يضـــعوا فـــي آذانهـــم حتـــى لا يســـمعوا غنـــاء الحوريـــات ، وهـــو غنـــاء ينتهـــي بمـــن يســـمعه إلـــى الأستســـلام لهـــن ولإغـــوائهن. وطلـــب مـــنهم أن يقيـــدوه إلـــى ((صـــاري)) الســـفينة ، وأن يزيـــدوا تقييـــده كلمـــا ازداد الغنـــاء . وتنتهـــي الأســـطورة بانتحـــار الحوريـــات لأن اوديســـيوس ســـمع غنـــاءهن وعـــــــــــــــــــــرف ســـــــــــــــــــــــــــرهن.

وتفســـــر هـــــذه الأســـــطورة علـــــى النحـــــو التـــــالي:

1- علاقـــة الإنســـان بالطبيعـــة فـــي الأوديســـة هـــي علاقـــة صـــراع وهيمنـــة وليســـت علاقـــة تـــوازن .وأوديســـيوس وبحارتـــه هـــم رمـــز الإنســـان الـــذي يـــود

الهيمنـــــــــــــــــة علــــــــــــــــى الطبيعـــــــــــــــة

2-يـتم أنجـاز هـذا الهـدف عـن طريـق إهـدار إنسـانية الإنسـان وتلقائيتـه ، فالبحـــاره ، رمـــز الطبقـــة العاملـــة ، يفقـــدون الصـــلة تمامـــاً مـــع الطبيعـــة ، واوديســـيوس , رمـــز الطبقـــة الحاكمـــة ، لا يســـتمع إلـــى الغنـــاء إلا وهـــو مقيـــد إلـــى الصـــاري ، إي إنـــه يحلـــم بالســـعادة دون أن يعيشـــها ويحلـــم بالطبيعـــة دون أن يـــــــــــرتبط بهــــــــــا.

3-لاينـتج عـن هـذا نفصـال الإنسـان عـن الطبيعـة وحسـب وإنمـا ينـتج عنـه إيضـــا انفصـــال المثـــال عـــن الواقـــع وانفصـــال الجـــزء الإنســـاني عـــن الكـــل الطبيعـــي، وبـــذا اصـــبح الإنســـان يعـــيش بعقلـــه فـــي مواجهـــة البيئـــة يحـــاول اســـتغلالها وحســـب دون أن يتفاعـــل معهـــا ، أي أن الإنســـان الكلـــي الحـــي يمـــوت ليحـــل محلـــه إنســـان اقتصـــادي إمبريـــالي ميـــت ، لأنـــه لا يحـــوي داخلــــــــه الجــــــــوهر الإنســــــــاني المتكامــــــــل.

4-تنتهـي الأسـطورة بانتحـار الحوريـات ومـوت الطبيعـة ، لأنهـا فقـدت ســــــــــــحرها وقدســــــــــــيتها.

ويـــرى مفكـــرو مدرســـة فرانكفـــورت أن جـــذور العقـــل الأداتـــي تعـــود إلـــى المنطـــق الأرســـطي الـــذي يكشـــف عـــن الميـــل لإخضـــاع جميـــع الموضـــوعات ، ســـواء كانـــت عقليـــة أم جســـمية ، اجتماعيـــة إنســـانية أم طبيعيـــة ماديـــة ، لـــــنفس القـــــوانين العامـــــة للتنظـــــيم والحســـــابات والأســـــتنتاج.

وأخيـــراً ، يـــذكر هوركهـــايمر وأدورنـــو ذاتيـــة ديكـــارت حـــين وضـــع الـــذات مقابـــل الموضـــوع وخلـــق هـــذه الثنائيـــة الحـــادة والصـــلبة بينهمـــا وكـــأن الـــذات يمكـــن أن تُوجَـــد مســـتقلة عـــن الموضـــوع ، وكـــأن الموضـــوع يمكـــن أن يوجـــد فـــي حـــد ذاتـــه مســـتقلاَ ً عـــن الـــذات . واســـتقلال الـــذات هنـــا يعنـــي أنهـــا ســـتحول الطبيعـــة إلـــى مجـــرد موضـــوع للتأمـــل (كمـــا فعـــل اوديســـيوس) يمكـــن توظيفـــه وحوســـلته والســـيطرة عليـــه .ويميـــز أدورنـــو وهوركهـــايمر بـــين المحاكـــاة والإســـقاط. فالمحاكـــاة هـــي إدراك مركـــب يحفـــظ التـــوازن بـــين الـــذات والموضـــوع كمـــا يحفـــظ التـــوتر الخـــلاف بينهمـــا . أمـــا الأســـقاط فهـــو شـــكل مـــن اشـــكال البارانويـــا إذ يحـــول البيئـــة إلـــى مجـــرد امتـــداد للـــذات.

وحركـــة الأســـتنارة هـــي قمـــة منطـــق الســـيطرة والهيمنـــة يشـــيرون لهـــا بأنهـــا الأســـتانرة المريضـــة والإســـتنارو اللاإنســـانية والمدنيـــة فـــي مقابـــل الحضـــارة، فهـــي حركـــة إســـقاط لا محاكـــاة إذ تلغـــي الطبيعـــة تمامـــاً وتعلـــن إمكانيـــة الســـيطرة النهائيـــة مـــن خـــلال تجريـــدها مـــن خصائصـــها الضـــرورية (قداســـتها – حرمتهـــا– اســـرارها –غيبهـــا) ، وتفتيتهـــا إلـــى ذرات منفصـــلة ، وأدركهـــا مـــن خـــلال مقـــولات واحديـــة ماديـــة بســـيطة، وإخضـــاعها للقيـــاس والحســـاب

والـتحكم والسـيطرة .ولكـن المفـارة تكمـن فـي أن الأسـتنارة بـذلك أدركـت الإنسـان نفسـه مـن خـلال مقـولات العلـوم الطبيعيـة البسـيطة (الموضـوعية المنفصـلة تمامـا عـن الـذات) . وينتهـي الأمـر حـين يسـوي التنـوير كـل شـيء بكـل شـيء آخـر ، ويصـبح العـالم مـادة اسـتعمالية خاضـعة لمؤسسـات العقـل الأداتـي الأداريـة ولابيروقراطيـة الـذي ينفلـت مـن أيـة غائيـات إنسـانية حتـي يصـبح قـوة مسـتقلة تمامـاً لهـا أجزاؤهـا وأهـدافها التـي تتجـاوز مـا هـو إنسـاني . وتصـل هـذه الاسـتنارة اللاإنسـانية إلـى قمتهـا فـي الفاشـية التـي هـي شـكل مـن أشـكال البارانويـا المتطرفـة التـي تُسـقط الـذات الإنسـانية علـى الطبيعـة وتُلغـي الطبيعـة تمامـاً ، فالرأسـمالية التقليديـة تعتمـد علـى وسـاطة السـوق ، ولـذا ثمـة علاقـة مـا بـين الـذات والموضـوع ، أمـا الفاشـية فهـي تُسـقط السـوق وتحـاول السـيطرة الكاملـة عليـه بشـكل مباشـر مـن خـلال ممارسـة القـوة غيـر المحـدودة.

ويمكـن القـول بـأن العقـل الأداتـي ، بعـد تبلـوره ، يتسـم بالسـمات التاليـة:

1- ينظـر العقـل الأداتـي إلـى الواقـع مـن منظـور التماثـل ولا يهـتم بالخصوصـية ، ولـذا فهـو يبحـث عـن السـمات المتماثلـة فـي الأشـياء ويهمـل السـمات التـي تميـز ظـاهرة مـا عـن أخـرى.

2- العقـل الأداتـي قـادر علـى أدراك الأجـزاء ، ولـذا فهـو يفتـت الواقـع إلـى أجـزاء غيـر مترابطـة ، ويفككـه دون ان يسـتطيع إعـادة تركيبـه إلا مـن خـلال

نمـــــــاذج اختزاليـــــــــــة بســـــــــيطة.

3-ينظـر العقـل الأداتـي إلـى الإنسـان باعتبـاره مجـرد جـزء يشـبه الأجـزاء الطبيعية/الماديـة الأخـرى. وهـذا الجـزء لـيس لـه مـا يُميـزه عـن بقيـة العـالم، ولـذا فهـو مُسـتوعب فـي كليتـه فـي النظـام الاجتمـاعي وفـي تقسـيم العمـل السـائد وفـي الطبيعـة/المادة.

4-العقـل الأداتـي ينظـر إلـى الإنسـان مـن منظـور العلـوم الطبيعيـة باعتبـاره شـيئاً ثابتـاً وكمـاً واضـحاً ووضـعاً قائمـاً لا يحـوي إيـة إمكانيـات.

5-العقـل الأداتـي ينظـر إلـى الطبيعـة والإنسـان باعتبارهمـا مـادة اسـتعمالية يمكـن توظيفهمـا وحوسـلتهما لخدمـة أي هـدف.

6-الهـدف النهـائي مـن الوجـود هـو الحفـاظ علـى بقـاء الـذات وهيمنتهـا وتفوقهـا ، ومـن هنـا تسـميته بالعقـل الـذاتي إيضـاً.

7-لتحقيـق هـذا الهـدف ، يلجـأ العقـل الأداتـي إلـى فـرض المقـولات الكميـة علـى الواقـع وإخضـاع جميـع الوقـائع والظـواهر الطبيعيـة والإنسـان للقـوانين الشـكلية والقواعـد القياسـية والنمـاذج الرياضـية ، حتـى يمكـن التحكم في الواقع ويصل هذا إلى ذروته في الفلسفة الوضعية.

ينـــــــتج عـــــــن هـــــــذا مـــــــا يلـــــــي:

_1أن العقــل الأداتــي يصــبح عــاجزاً تمامــاً عــن إدراك العمليــات الاجتماعيــة و السياســية و التاريخيــة فــي ســياقها الشامل الــذي يتخطــى حــدوده المباشــرة , بــل إنــه يعجــز تمامــاً عــن إدراك غائيــات نهائيــة أو كليــات متجــاوزة للمعطيــات الجزئيــة الحســية و المعطيــات الماديــة الآنيــة (و لــذا, يمكــن تســميته بالعقــل الجزئــي) , و هــو مــا يعنــي أن يصــبح عــاجزاً تمامــاً عـــن تحقيـــق أي تجـــاوز معرفـــي أو أخلاقـــي.

_2لهــذا الســبب نفســه يصــبح العقــل الأداتــي غيــر قــادر علــى تجــاوز الحاضــر للوصــول إلــى الماضــي و إلــى استشــراف المســتقبل , أي أن العقـــل الأداتـــي يســـقط تمامـــاً فـــي اللازمنيـــة و اللاتاريخيـــة .

_3مــع غيــاب أيــة مقــدرة علــى إدراك الكلــى المتجــاوز و أيــة أســس تاريخيــة و رؤوى مســتقبلية . أي مــع غيــاب أيــة أرضــية معرفيــة ثابتــة , يمكــن أن تســتند إليهــا معــايير عامــة = يســقط العقــل الأداتــي تمامــاً فــي نســبية المعرفــة و الأخلاقيــة و الجماليــة و إذ تصــبح كــل الأمــور متســاوية , و مــن ثــم تظهــر حالــة مــن اللامعياريــة الكاملــة , و مــع هــذا , يمكــن القــول بــأن النمــوذج الكــامن المهــيمن علــى الإنســان يصــبح مــع تســاوي الأمــور هــو : الطبيعــة / المــادة _الســلعة_ الشــيء فــي ذاتــه_ علاقــات التبــادل المجــردة .

4_لكــل هــذا يصــبح العقــل الأداتــي قــادراً علــى شــيء واحــد : قبــول الامــر الواقــع و التكيــف مــع مــا أمامــاه مــن وقــائع قائمــة و احــداث و جزئيــات و ظــروف القهــر و القمــع و التشــيؤ و الاغتــراب , وهــو مــا يعنــي تثبيــت دعــائم الســلطة و علاقــات القــوة و الســيادة القائمــة فــي مجتمــع معــين , و كــبح أيــــة نزعــــات إبداعيــــة تلقائيــــة تتجــــاوز مــــا هــــو مــــألوف .

5_لكــل هــا فــان العقــل بــرغم تحــرره مــن الأســاطير إلا أنــه تحــول هــو نفســه إلــى قــوة عقلانيــة تحــاول الســيطرة علــى الطبيعــة و علــى الإنســان و ترشــيد الحيــاة بشــكل يــؤدي الــى نفيــة الحريــة تمامــاً , كمــا يتبــدّى فــي البنــى الرشــيدة الحديثــة للتســلط , و لــذا فالتقــدم أدّى إلــى عكســه و التنــوير أدّى الــى الشــمولية و المجتمعــات الحديثــة التــى تســعى الــى الفرديــة همشــت الفــرد , و لــذا فهــي فــي طريقهــا إلــى شــكل مــن أشــكال البربريــة تتقــدم بخطــى حثيثــة ((نحــو الجحــيم)) , و مــا جــرى فــي معســكرات الإبــادة النازيــة مــا هــو إلا جــزء عضــوي مــن هــذه المســيرة الشــيطانية .

و قــد رصــد بــورجين هابرمــاس , أخــر ممثلــي مدرســة فرانكفــورت , ظــاهرة العقــــل الأداتــــي و تــــرقيض الإنســــان فــــي المجتمعــــات الحديثــــة و ســماها اســتعمار الحيــاة , أي عــالم الموجــود المتعــين المعــاش الــذي توجــد فيــه الــذات و تتفاعــل معــه و تســتمد وجودهــا منــه , فالترشــيد الأداتــي و الحوســلة المتزايــدة لمجــالات متناميــة فــي الحيــاة الإجتماعيــة , مــن قبــل الأنظمــة و المؤسســات الاقتصــادية و السياســية و الإداريــة , يــؤدي الــى

استعباد الإنسان , و إلى تقليص عالم الحياة و هيمنة عالم الأداة , و استعباد كثير من جوانب حياته الثرية و إمكانيته الكامنة المتنوعة .

و في مقابل العقل الأداتي يضع مفكرو مدرسة فرانكفورت العقل النقدي و العبارة ترجمة للمصطلح الإنجليزي (critical reason) و العقل النقدي : هو المفهوم الأساسي في كتابات مفكري مدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية) و يقال له أيضاً : العقل الكلي أو العقل الموضوعي في مقابل العقل الأداتي أو العقل الجزئي أو العقل الذاتي , و كلمة نقدي هنا مبهمة نوعاً ما , و تعود الى مفهوم كانط في النقد , فكانط كان يرى عمله باعتباره جزءًا من المشروع التنويري الغربي الذي رفض جميع الحجج التقليدية القائمة و أخضع كل شيء للنقد , و لكنه لم يتوقف عند هذا الحد و غنما خذ خطوة للإمام , و أخضع العقل للعملية النقدية ذاتها , أي أن كانط أخضع أداة الاستنارة الكبرى للنقد و بيّن حدودها الضيقة , متجاوزاً بذلك عقلانية عصر الاستنارة , أي أن هناك عقلانيتين: عقلانية مباشرة و سطحية , و عقلانية أكثر عمقاً و هذا هو الذي ترجم نفسه إلى عقلانية العقل الأداتي , و عقلانية العقل النقدي.

و يتســـــم العقـــــل النقـــــدي بمـــــا يلـــــي :

_1لا ينظـر العقـل النقـدي إلـى الإنسـان باعتيـاره جـزءاً مـن كـل أكبـر منـه يعـيش داخـل أشـكال إجتماعيـة ثابتـة معطـاة , مُسـتوعَباً تمامـاً فيهـا و فـي تقسـيم العمـل القـائم , و إنمـا أعتبـاره كيانـاً مسـتقلاً مبـدعاً لكـل مـا حولـه مـــن الأشـــكال التاريخيـــة و الاجتماعيـــة .

_2العقـل النقـدي يـدرك العـالم , الطبيعـة و الإنسـان , لا كمـا تدركـه العلـوم الطبيعيـة باعتبـاره مُعطـى ثابتـاً و وضـعاً قائمـاً و سـطحاً صـلباً , و إنمـــا يدركـــه باعتبـــاره وضـــعاً قائمـــاً و إمكانيـــة كامنـــة.

_3العقـل النقـدي لا يقنـع بـإدراك الجزئيـات المباشـرة , فهـو قـادر علـى إدراك الحقيقـــة الكليـــة و الغايـــة مـــن الوجـــود الإنســـاني .

_4العقـل النقـدي قـادر علـى التعـرف علـى الإنسـان و دوافعـه و إمكانيتـه و الغـــــرض مـــــن وجـــــوده .

_5العقـل النقـدي لكـل مـا سـبق , قـادر علـى تجـاوز الـذات الضـيقة و الإجـراءات و التفاصـيل المباشـرة و الحاضـر و الأمـر الواقـع , و لـذا يمكـن تسـمية العقـل النقـدي بـ العقـل المتجـاوز , و لـذا فهـو لا يـذعن لمـا هـو قـائم و يتقبلـه , و إنمـا يمكنـه القيـام بجهـد نقـدي تجـاه الأفكـار و

الممارسـات و العلاقـات السـائدة و البحـث في جـذور الأشـياء و أصـولها و فـي المصـالح الكامنـة وراءهـا و المعـارف المرتبطـة بهـذه المصـالح , و هـذا هـو الجانـب التفكيكـي فـي العقـل النقـدي .

6_الحقيقـة الكليـة التـي يـدركها العقـل النقـدي و الإمكانيـات الكامنـة التـي ليسـت أمـوراً مجـردة متجـاوزة للإنسـان , الفكـرة الهيجليـة الملطقـة و إنمـا كامنـة فـي الإنسـان ذاتـه , و العقـل النقـدي قـادر علـى رؤيتهـا فـي كمونها هذا ؛ أي أن الإنسان يحل على الفكرة المطلقة.